د . قسطنطين زريق

الوعي القومي

مقدمة الطبعة الثانية

هوذا "الوعي القومي" يقدم للعالم العربي في طبعة جديدة منقحة. فإنه لم يمض على الطبعة الأولى بضعة أشهر حتى نفدت نسخها كلها، وحتى دعت الحاجة إلى اصدار طبعة ثانية، بالرغم من الأحوال العسيرة التي تضيّق علينا في هذه الأيام. وقد لقى هذا الكتاب فوق ما كنت أرجو له من التشجيع والرواج. وتناوله الأدباء بالمراجعة والدرس، فخصوه بفصول ممتعة نشروها في مجلات العراق والشام ومصر، وضمنوها آراء وملاحظات كان لي منها فائدة عظيمة، فأرجو أن يتقبلوا عنها صادق الشكر وخالص الامتنان. وكان لوزارة المعارف العراقية الجليلة النصيب الأوفر من هذا التشجيع الذي أحرزه الكتاب. فإنها وضعت نسخة منه في كل مدرسة ومكتبة من مدارس العراق الرسمية ومكاتبه، كما قررت دار المعلمين العليا التابعة لها تدريسه في بعض صفوفها. فعسى أن يكون قد أصاب الغاية المرجوة منه، وقام لدى المتعهدين أمر التربية في ذاك القطر العربي الناهض بالخدمة الثقافية والقومية التي علقوها عليه.

ولقد أثار هذا الرواج في نفسي خواطر وخوالج مختلفة أود أن أسجل أهمها، بأمانة واخلاص، في بدء هذه المرحلة الثانية التي يقطعها الكتاب:

أولاً: انه مكن في نفسي الاقتناع بالتعطش الذي يملأ قلوب الشبيبة العربية إلى التفكير الواضح في المسائل القومية، وأكد لي الحاجة الملحة في عقول أفرادها وقلوبهم إلى ما يهديهم سواء السبيل في هذه التيارات المختلفة التي تتقاذفهم. فإنك لا تتحدث إليهم إلا وتشعر بالجوع الذي يتآكل قلوبهم، وبالظمأ الذي يحرّق نفوسهم، وبتلهفهم الشديد إلى كل ما يعينهم في تنظيم تفكيرهم القومي وتوجيههم إلى العمل الصالح في سبيل أمتهم وبلادهم. وانك لا تقدم لهم شيئاً يحاول سد هذه الحاجة العقلية والروحية إلا وتراهم يتهافتون عليه ويقبلون على الاستفادة منه بالرغم مما يعتوره في أحيان

كثيرة من ضعف ونقص . ولا أظن أحداً اتصل بالشباب العربي ولمس ما يختلج في نفسه ، يخالفني في هذا الرأي والشعور.

ثانياً : انه قوّى شعوري بالتبعة التي تقع على عاتق المفكرين وقادة الرأي في الأمة العربية إزاء هذه الحاجة القاهرة ، وبضرورة انصرافهم إلى العمل المنظم الحازم لمعالجتها، وبالحكم الصارم الذي تطلقه الأجيال عليهم إذا هم اهملوا هذا الواجب وقعدوا عن تأدية رسالتهم التاريخية هذه. وقد بسطت هذه التبعة في الفصل الذي قدمت به للطبعة الأولى ، وكان شعوري الحاد بها هو الذي طغى على ما كنت أحس به في ثنايا هذا الكتاب من نقص ومن ضعف في الارتباط بالنسبة إلى الموضوع الخطير الذي يتناوله ، وهو الذي دفعني إلى نشره بشكله هذا " على أنه خطوة أولية متواضعة " عساها تؤدي إلى خطى أجرأ وأوسع يتقدم بها المفكرون القوميون إلى الغاية المنشودة: وهي إيضاح العقيدة القومية ايضاحاً وافياً ، وإشاعتها في عقول العرب وقلوبهم، وجعلها أساساً صالحاً للعمل القومي المنظم .

ثالثاً : وهنا ليُسمح لي ان أعبر عن عاطفة شخصية ، إنه بث في نفسي تواضعاً ورهبة وتهيباً . فإن العطف والتشجيع اللذين لقيهما هذا الجهد التمهيدي ، المتلمس طريقه إلى البحث القومي الوافي ، نبهاني إلى قلة ما بذلت بالنسبة إلى ما تتطلبه حاجات الوطن العربي من ناحية ، وإلى ما يقوم به رجال الفكر في الأمم الغربية من ناحية أخرى . فأية تضحية تحملنا، نحن الذين نطمح إلى هذا المستوى الرفيع الذي يحتله العمل الفكري - بل الذي يعتقد أي من حمل قلماً منا انه تبوأه وتربع عليه - وأي جهد بذلنا يصح أن يقارن بالجهود التي يقوم بها المفكرون الحقيقيون في الأمم الغربية الناهضة ؟ الحق اننا لا نزال مقصرين في حق الرسالة الفكرية ، واننا لم نتعود بعد أن نغذي عملنا الفكري بدم القلب وعصارة الروح . واني شخصياً لشاكر لاختباري هذا توسيعه آفاق العمل أمامي ، وتوجيهه إياي إلى ميادين البذل والتضحية التي تنفسح أمام رجل الفكر والتي يجد جزاءه الأكبر في ولوجها وتتبع طرقها الشاقة إلى ما يبعث في نفسه الرضى والهناء الصحيحين .

التيار القومي العربي

تكرّم بعض الأدباء ، كما ذكرت، فتناولوا الوعي القومي بالدرس والمراجعة ، فمنهم من اكتفى ببسط أبحاث الكتاب ، ومنهم من أبدى عليها ملاحظات وتعليقات حرية بالنظر والاعتبار. وقد استفدت من بعض هذه الملاحظات التفصيلية في إعداد الطبعة الثانية . أما البعض الآخر، الذي لا أوافق أصحابه فيه ، فلست أجد من المناسب مناقشته في مقدمة عامة كهذه ، على أنني متيقن ان البحث الجدي في المسائل القومية الذي سنقدم عليه في العالم العربي سيجلوه ويبين وجه الصواب فيه . غير أن هناك ملاحظة عامة يحسن بنا أن نقف عندها ونتدبرها ، أبداها الناقد الأديب الأستاذ صديق شيبوب في نقده الدقيق للكتاب في العدد ١٢٨٧٩ من جريدة البصير الصادرة في الاسكندرية ، وذكرها كذلك الأستاذ مجيد خدوري في العدد السادس من السنة الرابعة من مجلة المعلم الجديد التي تصدرها وزارة المعارف في العراق . فقد قال الأول : " وأول ما يجول في ذهن القارىء وهو يطالع بحثاً كهذا مطالبة المؤلف بأن يحدد ما يريده بالوحدة العربية وأي الأقطار يجب أن تشمل... لذلك وددنا لو أن الأستاذ قسطنطين زريق لم يكتف بالنظريات فيما قرره ، وعرض للوسائل العملية لتكوين الوحدة العربية ". وذكر الثاني (ص ٤٩٥) : " ونود الآن بيان ملاحظتين على هذا البحث القيم في معنى الوعي القومي . الأولى هي اهمال هذا البحث لنشوء الفكرة القومية وأسسها العامة . ونحن لا نقول ان الدكتور زريق قد أهمل عوامل القومية لأنه أشار إلى اللغة والتقاليد وغير ذلك من الأسس التي تقوم عليها القومية ولكن الرابطة بين هذه الأسس ونشوء القومية يحسن أن يشار إليها ".

إن مغزى هاتين الملاحظتين هو أن الفصول التي يشملها " الوعي القومي " تحمل في طياتها مسائل أساسية في الفكرة القومية العربية كان يحسن أن تبرزها وتقطع فيها قبل ان تتقدم إلى عرض ما عرضته من نواحي هذه الفكرة . فالأستاذ شيبوب يطالبنا بتحديد ما نريد بالوحدة العربية وعرض الوسائل العملية لتكوينها ، ونحن نوافقه في أننا لم نعالج هذه المسألة التي تمس جوهر الفكرة القومية العربية ، بل تناولنا هذه الفكرة كما توجد في العالم العربي - والأستاذ شيبوب نفسه لا ينكر وجودها ، ولو كان في غير مصر من البلاد العربية

لشعر بقوتها وحيويتها- وحاولنا عرض مظاهرها كما هي ، ثم تبيان السبل التي يجب أن تتبعها للوصول إلى الغاية الصحيحة . ومن البديهي أن فصولاً متفرقة كالتي يضمها هذا الكتاب لا يمكن أن تستوعب جميع المسائل الأساسية التي تتصل بهذا الموضوع الخطير. ولذا دعونا في المقدمة دعوة صريحة إلى البحث المنظم الشامل الذي تبنى على أساسه العقيدة القومية العربية ، والذي ليست هذه الفصول سوى خطوة تمهيدية له . وليس من شك عندي في أن هذه الفكرة القومية التي تفرض نفسها على الناس فرضاً متزايداً في البلاد العربية سوف تدفع رجال الفكر والعمل في الحقل القومي إلى اظهار الأسس التي ترتكز عليها ، وإلى عرضها عرضاً منظماً شاملاً يحيط بمسائلها الرئيسية ودقائقها الصغرى ، ويتناول النظريات التي تؤلفها والوسائل العملية لتحقيقها . وإلى أن يتم هذا التنظيم الفكري والعملي يبقى الأستاذ شيبوب وأمثاله محقون بمطالبتهم بالتحديد الواضح والبحث الأساسي الصريح قبل أن يؤمنوا بعمق هذا الشعور القومي الذي يرونه حولهم وبدوامه وثباته على الأيام . من هنا يتبين مرة ثانية ، وبجلاء لا يشوبه أي ابهام أو غموض ، عظم التبعة الملقاة على عاتق المشتغلين بالمسألة القومية ، وهي أخص مسائل الحياة العربية وأبرزها ، بل هي مسألة الحياة العربية بذاتها .

ومثل هذا نقوله عن ملاحظة الأستاذ خدوري . فإننا لا ندعي أننا وفينا البحث في نشوء الفكرة القومية حقه ، ونوافقه على ما ذكره في مقاله من أن ثمة عوامل خارجية....... [ست كلمات حذفتها المراقبة] توحد عناصر القومية وتبعثها روحاً حية ، وفي أن هذه وسواها من نواحي الموضوع تحتاج إلى درس مشبع ضاق عنه هذا الكتاب . وهو يشاركنا - ولا شك - في أملنا الذي أعربنا عنه بأن يتوفر لهذه النواحي من يعالجها معالجة دقيقة ضمن البحث القومي المنظم الذي دعونا إليه . وفي الحق ان كتاب الوعي القومي بكامله يلخص في هذه الدعوة وذاك الأمل ! .

***

وكان أن صدر هذا الكتاب في بدء العاصفة الهوجاء التي هبت على العالم وهزت أركانه هزاً . وكان للحياة

العربية من أثر هذه العاصفة نصيب غير قليل : فارتجت جوانبها واختلطت عناصرها وعواملها . على أن أول ما يبرز للعيان من هذا الأثر هو ما نراه في البلاد العربية من تشتت في الآراء والفكر، ومن تصادم في النزعات والأهواء : فكل منا يسير في وجهة ، وكل يتكلم بلسان ، وليس لنا موقف ثابت أو رأي موحد إزاء هذا الاضطراب الهائل الذي يثور في العالم ، والذي سوف يوجه حياتنا المقبلة وينفذ عمله فيها حتى الصميم .

ومما لا شك فيه ان عظم القوى المتطاحنة ، وشدة العاصفة الهائجة ، وما قلبت من أوضاع ، وما هدمت من نظم ، وما بدلت من أحوال : ان هذا كله كان عاملاً كبيراً في هذا التشتت الذي أصابنا ، وفي هذا الميعان الذي شملنا جميعاً . على أن مما لا شك فيه أيضاً أن هناك بجانب هذا العامل الخارجي عاملاً داخلياً لا يقل عنه - بل يزيده - أثراً وخطورة : هو ضعف العقيدة في نفوسنا ، وغموض الفكرة في أذهاننا ، وعدم إجماعنا قبل حلول الأزمة على رأي صريح أو عمل معين . فما ان نزلت الأزمة بنا وهزت حياتنا ، حتى برزت أهواؤنا الخاصة ونزعاتنا الطائفية وسواها من القوى المفرقة .فطغت على ما كسبنا من وحدة في العقيدة والجهاد ، وحتى رجحت الرغبة في الأمن سلامة العيش والاستقرار على ما تفرضه هذه العقيدة على أصحابها من صبر وتضحية وإيمان . وهكذا تُنبهنا هذه الأزمة المحيقة بنا ، بشكل لا يقبل الجدل ، إلى خطورة هذا الضعف والميعان في عقيدتنا ، وإلى أن حياتنا كلها تتوقف على ما نصيب من رأي جامع وفكرة قوية واضحة لا تبقى في أذهاننا فحسب ، بل تتعمق إلى صميم نفوسنا فتصبّها في قالب واحد...[سبع كلمات حذفتها المراقبة]

على أن هذه الأزمة النازلة ليست الوحيدة في حياتنا. فإن معها أزمة أخرى ، إن لم توازها قوة وحدّة فإن لها مقامها الخاص وخطرها الشديد : هي الأزمة الناشئة عن ضيق مواردنا العقلية والروحية بالنسبة إلى حاجات هذا العصر ولما يطلب منا إذا أردنا أن يكون لنا بقاء بين الأمم . فنحن إذا ألقينا نظرة على حياتنا الفكرية وقابلناها بحالة الأمم الناهضة في الغرب وجدنا ان حظنا من الثقافة لايزال في غاية

الضآلة ، ودون ما يصح أن يكون أساساً لقيام أمة أو بناء كيان يواجه قوى العصر ويستحق أن ينعم بحياة حرة متحضرة رفيعة . وكما أن شحة الموارد الطبيعية وضعف المرافق الاقتصادية يسببان أزمة مادية ، كذلك تكوّن قلة الإنتاج الفكري أزمة عقلية روحية . وقد أظهر اختبار العالم في السنوات الأخيرة أن الازمات الاقتصادية لا تعالج إلا بالجهد الموجه والعمل المنظم . كذلك لا سند لنا في معالجة أزمتنا العقلية إلا ذلك الأساس المكين الذي تقوم عليه المدنية الحديثة : أعني به التنظيم ، التنظيم الذي يوجه الجهد إلى المشاكل الجوهرية الأساسية في الحياة ، والذي يحفظ قوة الأمة الفكرية ونشاطها العقلي فلا يبددهما في الأمور التافهة والمسائل الجزئية . فإن التبذير الذي قد يسمح به في أيام الترف والرخاء لا يجوز في أيام الضيق والعناء حين تحتاج الأمة إلى كل ذرة من نشاطها وإلى كل نبضة من نبضات فؤادها لتقف على أرجلها وتلحق بمن سبقها . وليس من المشاكل التي تجابه الأمة العربية ما هو ألصق بحياتها وأهم لمستقبلها من مشاكلها القومية ، فما أحراها أن تصرف إليها جهودها، وتصب عليها ما اختزنته خلال العصور من قوة وهمة ونشاط . وهذا دليل جديد ، نستمده من الأزمة العقلية والروحية التي وصفناها، على وجوب الإسراع في معالجة المشاكل القومية ، والانصباب على البحث المنظم في مسائل حياتنا الاساسية ، لنصل بهما إلى العقيدة الموحدة الواضحة التي عليها- وعليها وحدها - يقام العمل المنظم لبناء الأمة وانهاض البلاد.

***

أخشى أن أكون أكثرت من ترديد ما أقصد قوله وأطلت في الضرب على الوتر نفسه، ولكن خطورة الموضوع وما يثيره في نفسي من شعور فرضا عليّ ذلك . وسيجد القراء الفكرة التي تحتويها هذه الكلمة والكلمة التي قدمت بها للطبعة الأولى مبسطة في وجوهها المختلفة في فصول الكتاب . فعسى أن يكون في هذا التذكير المردود ما يفيد أصحاب الإيمان القومي في استكشاف واجبهم الأول ، وفي تأديته على وجهه الصحيح . [فإن الذكرى تنفع المؤمنين]

بيروت في ٢٠ أيلول ١٩٤٠ قسطنطين زريق

مقدمة الطبعة الأولى

رقد العرب بعد نهضتهم الكبرى في العصور الوسطى قروناً طويلة نسيهم فيها العالم ونسوا أنفسهم ، واستكانوا للظلم والجهل والفقر المادي والروحي ، تجرهم الحياة عضواً مشلولاً في الجسم الإنساني ، حتى إذا بدت طلائع القرن الماضي ، حاملة معها نسمات روح جديدة ، تهب بها عليهم حضارة الغرب الحديثة ، أخذوا ينتعشون تدريجاً ، ويفتحون عيونهم لاستقبال نور الحياة المشرقة عليهم ، المهيبة بهم إلى النهضة والعمل لاحتلال المنزلة اللائقة بهم بين الأمم . بدأت هذه الروح الجديدة تهب عليهم نسمات خفيفة رقيقة ، ثم أخذت تتتابع وتقوى بتقدم القرن الماضي والسنين الأولى من القرن الحاضر، حتى كانت الحرب العظمى فإذا بتلك النسمات قد أصبحت ريحاً شديدة ، بل عاصفة هوجاء تتلاعب بالأمة العربية ، وتقذف بها ذات اليمين وذات الشمال .

وما زال العرب اليوم يعيشون في وسط هذه العاصفة ، وفي ملتقى التيارات المنصبة عليهم من كل صوب وناحية . فإذا نحن تقصينا الأثر البارز للقوى العظيمة المتفاعلة وإياهم وجدناه في هذه الهبة القومية التي تدفعهم إلى استكشاف أنفسهم ، وتحرير أفرادهم ومجموعهم ، واستعادة سالف مجدهم ، واثبات مكانتهم في المجتمع البشري . وما من أحد يلمس الحياة العربية الحاضرة الا ويشعر بهذه الهبة المرتفعة من صدور العرب في شتى أقطارهم ، المبشرة بنهضة جديدة، يرجى لها ما كان لسابقتها من عز منيع ، ومجد رفيع ومساهمة ذات شأن في تقدم التمدن الإنساني .

على أن هذا الانبعاث القومي الجديد ما زال في طور الهبوب والفوران : يقترب منه المرء فيشعر بقوته ، ويُلفح بناره ويلمس بيده الحياة المتوثبة التي تجيش فيه.

من حق كل عربي أن يزهو به ، ويملأ صدره أملاً بما سيؤول إليه ، واستبشاراً بما يحمل في طياته من خيرعميم لأمته وللإنسانية جمعاء . غير انه من الخطرأن يبقى في هذا

الطور، وان يتدفق كله عاطفة متحفزة وشعوراً صارخاً . انه يجب أن يتقدم إلى طور التفكير الهادىء المنظم، ويشرق بنور العلم المدرك الواعي ، ويخرج عقيدة قومية متينة الأساس ، مرصوصة البنيان، تستقر في النفس فتملأها قوة وعزما وتبعث فيها إيماناً يزحزح الجبال .

أجل ! ليس من أمل للنهضة القومية العربية ما لم تكن مستمدة من " فلسفة " قومية تصور روحها ، وتحدد اتجاهها ، وتنصّب لها الأهداف ، وتعين لها السبل والوسائل. أقول هذا وأنا أعلم أنني سأثير عند كثير من أبناء الأمة - بل بين العاملين في الحقل القومي أنفسهم - ما يرسم الابتسام والسخرية على الوجوه ، ويبعث الشك والريبة في النفوس . فالوقت عندهم وقت جد وجهاد، لا مجال فيه لفلسفة ونظريات ، و حالة الأمة تدعو إلى عمل وكفاح ، لا إلى بحث وكلام. وما ضرّ العرب - في نظرهم مثل المناقشة والمجادلة الكلامية ، وما نفع الغرب مثل التشمير عن ساعد الجد والنهضة للعمل والإنتاج .

فلأبادر إلى تطمين من تخامرهم هذه الشكوك اني أبعد الناس عن التقليل من قيمة الجهاد والكفاح في شتى نواحي الحياة ، واني أسرعهم للدعوة إلى تأثر الغرب في العمل المنتج والهمة الفعالة . ولكنني متيقن ، في الوقت نفسه، من أن ذلك الجهاد لا يبلغ غايته إلا إذا كان مدعوماً بفكر واضح نيّر، وان هذا العمل لا ينتج حقاً لا إذا صدر عن رأي بصير وعقل مدبر . وأقرر، غير متردد ولا متحفظ ، ان ما من نهضة قومية تحريرية قامت في العالم إلا وسبقتها أو لازمتها نهضة فكرية مهدت لها الطريق ، ورسمت أمامها الغاية ، وأوضحت لها المعالم والحدود ، وان المناقشة والمجادلة ماضرت العرب في عصور غفلتهم إلا لأنها كانت بعيدة عن حياتهم ، غريبة عن الجو الذي كانوا يضطربون فيه ، وأن الجد والعمل ما نفع الغرب إلا لأنه بُني على الفكر المنظم ، والعقيدة الواضحة ، والفلسفة الشاملة.

فإذا أردنا لهذه النهضة القومية العربية أن تستكمل شروطها ، وتؤتي ثمارها ، لم يكن لنا غنى عن ثلاث خطى رئيسية يترتب علينا اتخاذها بحزم ونشاط : أولها بناء الأساس الفكري الذي تقوم عليه هذه النهضة القومية ، وذلك بدرس غاياتها ووسائلها ، وتحديد معنى

الأمة العربية، واثبات خصائص الأمة العربية ومميزاتها ، واظهار مقامها الفريد بين الأمم والنصيب الذي كان لها في الماضي والذي يرجى لها في المستقبل في تقدم التمدن والحضارة البشرية : أو، بكلمة أخرى، انشاء " فلسفة قومية " شاملة واضحة منظمة . ولكم تضطرب نفسي حين يطلب مني أحد المهتمين بالقضية العربية من كتّاب الغرب ومفكريه ان أطلعه على " نظرية " القومية العربية، أو أن أضع بيده ما يقوده إلى المعين الفكري الذي تنبع منه ، فأجدني فارغاً إلا من بضع مقالات وأبحاث قليلة الغنى ضيقة المدى ، فأفكر في التبعة العظمى الواقعة على عواتق كتّاب العرب وقادة الرأي فيهم ، وأتساءل عما إذا كانوا يقومون حقاً بواجبهم ويؤدون مهمتهم .

أما الخطوة الثانية فهي ان تعصر هذه الفلسفة في فكرة مقطرة نقية صافية يتشربها أبناء الأمة وتمتزج بعاطفتهم المتوثبة وشعورهم الفياض ، فيحصل من هذا المزيج المبارك "عقيدة" قومية ، تسير بأفراد العرب وجماعاتهم قدما إلى الأهداف الصحيحة ، وتملأ نفوسهم عزماً وأملاً ، وتشيع فيها معنى وسموّاً وجمالاً .

وأخيراً يتخذ العاملون في الحقل القومي الخطوة الثانية ، فيجاهدون لـ "تنظيم " الأمة العربية ، وضبط نوازعها ، وإخضاع شهواتها وإرادتها للإرادة الوحيدة المنبعثة من "العقيدة" الواحدة ، فيدرّب رجال الامة ونساؤها على العمل المنظم الصادر عن الفكر المنظم والمكمّل له .

على هذه الأركان الثلاثة : الفلسفة القومية ، والعقيدة القومية ، والتنظيم ، تقوم كل نهضة قومية صحيحة ، وإليها يجب أن يوجه العرب جهودهم في هذا الدور التأسيسي من حياتهم الجديدة ، لتكون نهضتهم قوية البنيان ، ثابتة على الزمان .

***

ولا غرو في أن الخطوتين الأوليين ، على الأقل ، هما من واجب مفكري الأمة ، وقادة النظر والبحث فيها . فمنهم - لا من رجال التنفيذ المتوسطين ميدان العمل - يطلب

هذا النوع من التفكير الايضاحي المنظم الذي تبينا ما له من مقام في النهضة القومية الصحيحة .

إزاء هذا الواجب الجلل يحق لنا أن نتساءل : ماذا عمل رجال الفكر العربي ، وإلى أي حد بلغوا في القيام بتبعتهم الخطيرة ؟ لا أخالني مشتطاً في الحكم أو مغالياً إذا قلت إنهم لم يأتوا من هذا القبيل بما يغني أو يفيد، بل ان كثرتهم لم تتنبه بعد إلى هذه المهمة الدقيقة التي تنتظرها. ولأكتف بدليل واحد على ما أقول :

في شهر نيسان الماضي أصدرت إدارة الهلال عدداً ممتازاً موضوعه : " العرب والإسلام " حرره كبار كتاب العرب وأدبائهم ، وقادة السياسة والاقتصاد والاجتماع فيهم . على أن من يطالع المقالات الوافرة التي تضمنها هذا العدد الفخم ، يلاحظ فوراً الفوضى في التفكير القومي التي يتخبط فيها زعماء الرأي بيننا . فليس ثمة تمييز واضح بين " الأمة العربية " ، وبين " العروبة " و"الشرق " و"الإسلام " ، وليس ثمة فهم نافذ للنهضة القومية ، أو برنامج منظم لوسائل بعثها واحيائها . وأنك لتقرأ المقالة الواحدة فتصدمك المتناقضات النافرة التي تنكرها أبسط قوانين التفكير القومي الصحيح .

اسمع ، مثلاً ، ما يذكره الدكتور طه حسين في مقاله : " في العقل العربي الحديث " (ص ٤٩) حين يحاول التمييز بين العقل العربي القديم والعقل العربي الحديث في النظر إلى الوحدة العربية : " وربما كان من الأمثلة الظريفة الطريفة التي تبين الفرق بين العقل العربي القديم ، والعقل العربي الحديث في هذا العصر الذي نعيش فيه مسألة الوحدة العربية أو الوحدة الإسلامية التي يكثر فيها الكلام وتشتد فيها الخصومة ، فما أظن أن الناس يختلفون في أن هذه الوحدة نافعة للشعوب العربية وللشعوب الإسلامية أشد النفع ، وفي أن مصالحهم تدعوهم إليها وتدفعهم إليها دفعاً ، ولكنهم مع ذلك يختلفون ويختصمون لا لشيء إلا لأنهم يختلفون في تصور هذه الوحدة حسب ما يتاح لهم من العقل القديم أو العقل الحديث . فأما أصحاب القديم فيفهمون هذه الوحدة كما يفهمها القدماء في ظل سلطان عام شامل يبسط عليها جناحيه ويحوطها بقوته وبأسه... وأما أصحاب العقل الحديث

فيفهمون هذه الوحدة على نحو ما تفهم عليه في البلاد المتحضرة بالحضارات الحديثة الأوروبية ، يفهمونها على أنها لا تنفع ولا تفيد إلا إذا احتفظت بالقوميات والشخصيات الوطنية والحريات الكاملة لأعضائها والسيادة العامة لهم في حياتها الداخلية والخارجية وقامت على الحلف . الذي لا يفني أمة في أمة ولا يخضع شعبا لشعب ، وإنما يمكن الأمم من أن تتعاون على أساس ما يكون بين الأنداد من المساواة " . ألست ترى هذا الالتباس المرتبك بين " الوحدة العربية " و" الوحدة الإسلامية "، وهذا الاضطراب الشديد في فهم " الوحدة " و" الحلف " والتمييز بينهما ؟ فكيف يمكن " وحدة " أن تحتفظ بـ "القوميات " وتقوم على " الحلف " ، في حين أنها تتناول جوهر الأمة الواحدة وتنبعث من مميزاتها الخاصة وقوميتها الثابتة ، ولا تكتفي بروابط " الحلف " الخاضعة في الأكثر لتقلبات الأحداث والمصالح والظروف السياسية وسواها ؟

ومثل هذا الارتباك - بل أشد منه- في مقالات كثيرة في هذا العدد . وقد يخفف عند بعضنا من خطورة هذا الأمر، أن معظم كتاب هذا العدد من رجال العهد "المخضرم " الذين لا ينتظر منهم تفكير قومي خالص ، وان المجلة تصدر في مصر حيث الفوضي في النظر إلى النهضة القومية العربية ومقام مصر منها بصفة خاصة . ولكن تبقى ، على كل حال ، الحقيقة المرة الأليمة وهي أن من يحتل المقاعد الأمامية في حياتنا الفكرية بعيدون عن أهم واجب عليهم في أخطر دور تمر فيه أمتهم .

ولست أنكر أن فئة قليلة من قادة الشباب العربي - في الشام والعراق خاصة - أخذت تنحو النحو المنشود، وتحاول أن تفكر تفكيراً قومياً سليماً مبنياً على العلم الصحيح وعلى اختبارات الأمم الناهضة ، وان بعضها بدأ يعبّر عن هذا التفكير ويسعى لنشره ، ولكن هذه الجهود لا تزال في مراحلها الأولى : فالعدد قليل ، والخطى بطيئة حائرة ، ووسائل الجمع والتنظيم التي تؤمن صدور تفكير موحد تكاد تكون في حكم العدم . أما أكثر الشباب " المثقف " فهو منصرف عن معالجة القضايا الحيوية التي تتمخض بها النهضة القومية إلى النتاج الأدبي الذي أقل ما يقال فيه انه - في كثرته الغالبة - بعيد عن حاجات

الأمة الحقيقية ، لا يمس جوهر حياتها الحاضرة أو كيانها المقبل . أين نحن من البحث الخصيب في مواردنا الطبيعية ومرافقنا الاقتصادية وطرق بعثها واستغلالها إلى ما يكفل لنا عيشاً مكفياً وكياناً منيعاً ؟ أين نحن من التفكير الاجتماعي الرصين الذي يعالج أزمتنا الأخلاقية وتدني مستوانا الروحي في الأسرة والمدرسة والدولة ، بل في جميع منظمات مجتمعنا ؟ بل أين نحن من النظرة الأدبية الصائبة التي تدرك مقام الأدب الصحيح في نهضة الأمم - الأدب المستمد من الحياة ، المكيف للحياة - فتتجه إليه ، وتدفع صاحبها إلى مجاهدة نفسه لإنتاجه وتلقيح أبناء أمته به ؟ وبكلمة وجيزة ، أين نحن من التفكير المنظم في أي من الأسس الحقيقية التي تشاد عليها النهضات القومية الثابتة ؟

من أجل هذا، كنت ولا أزال أدعو إلى وجوب أخذ مفكرينا بهذا النوع من البحث والتفكير، مع درس نهضات الأمم الأخرى وما رسمت لنفسها من غايات وما نهجت من سبل، والنظر في مزايا الأمة العربية وسجاياها الخاصة ، لكي يستخرج من هذا كله الأساس الفلسفي الذي عليه تشاد العقيدة القومية العربية . وكنت لا أزال أدعو القلة من رجالنا المفكرة تفكيراً قومياً صحيحاً إلى وجوب ضم جهودها لإنشاء هذه العقيدة القومية ودفعها إلى الأمة صريحة واضحة منظمة لتتغذى بها نفوسها وتتوحد أهدافها ومراميها . بهذا- وبهذا وحده- يكتسب تفكيرنا وعملنا الاستقرار المنشود ، ومنه - دون غيره - نستمد النور الذي يهدينا سواء السبيل .

***

ليس هذا الكتاب الذي أضعه الآن بين أيدي القراء بحثاً منظماً في العقيدة القومية على النحو الذي وصفت . فليس لي من استعدادي الحاضر ما يؤهلني لمثل هذه المهمة الخطيرة ، ولا من فراغ البال وسعة الوقت ما يتطلبه هذا العمل الجليل . وإنما هي " نظرات " ألقيتها على حياتنا القومية ، ثم لملمتها وجمعتها بين دفتي كتاب ، آملاً أن يكون منها بعض النفع في العمل التوجيهي المفروض على جميع رجال الفكر في الأمة في الوقت الحاضر. وهي- وإن كانت فصولاً مستقلة وضعت في مناسبات وأحوال مختلفة - تؤلف وحدة فكرية روحية بما تصدر عنه من

عقيدة واحدة تشيع فيها جميعاً . تتناول الفصول الستة الأولى معنى القومية ، ومقام المرأة فيها ، وعلاقتها بـ " التربية " ، و" الجنس " ، و" الدين " ، و" العمل الاجتماعي ". وتبحث الفصول الخمسة التالية في مظاهر من حياتنا الثقافية مشيرة إلى بعض نواحي النقص فيها ، ملمحة إلى المثل الثقافية العليا التي يجب أن نتطلع إليها . ويكشف الفصلان الأخيران عن بعض المنابع الروحية التي تغذي النهضة القومية ، والتي لا غنى لهذه النهضة عن مائها النمير واكسيرها المحيي إذا أريد لها العز والمجد والنمو، بل مجرد البقاء.

لئن كان هذا الكتاب بعيداً عن البحث المنظم الشامل الذي تتفتح عنه العقيدة القومية العربية ، فلقد أقدمت على نشره- على أنه خطوة أولية متواضعة- معتمداً في ذلك على أمرين : أولهما أملي بأن يكون منه ما يبعث على التفكير الصحيح في القضية القومية وما يساعد على بلوغ ذلك النسق من البحث القومي الذي وصفته في هذه المقدمة ، والثاني شعوري بأن فصوله كتبت تحت ضغط التبعة التي يجب على كل حامل قلم تحملها تجاه أمته في هذا الظرف الدقيق من حياتها. وحسبي منه أن يحقق ذلك الامل، وأن يكون في هذا الشعور بالتبعة الفكرية الذي يسري في طياته، ما يشفع بما فيه من نقص أوخلل .

معنى الوعي القومي

لم يبق خافياً على أي من ينظر في حالة الأمة العربية انها تجتاز اليوم دوراً من أشد أدوار حياتها دقة وأعظمها خطراً ، وانها تتخبط في فوضى فكرية بعيدة المدى بليغة الأثر . فكلنا يشعر بالتيارات المختلفة التي تتقاذفنا، وبالنزعات المتباينة التي تتجاذب نواحي حياتنا، وكلنا يحس هذا الهيجان الفكري والعاطفي الذي طغى علينا، والذي وزعنا فرقاً متنازعة وأحزاباً متناحرة لا تعرف لها هدفاً بيّنا أو غاية صريحة .

في مثل هذا الموقف الدقيق يترتب على مفكري الأمة وقادة نفوسها أن يواجهوا هذه الفوضى بعقل هادىء وقلب مطمئن ويعمدوا إلى تحليل عواملها والكشف عن منابعها ومصادرها الخفية، وان يتطلعوا من خلال أمواجها المتلاطمة إلى الأفق البعيد ليتبينوا قبس نور يهتدون به وشاطئاً أميناً يقودون الأمة إليه . ذلك هو واجبهم وتلك رسالتهم، فإن لم يقوموا بالواجب ويؤدوا الرسالة، بل ألهتهم عنها الأطماع الشخصية والغايات الصغرى، جنوا على أمتهم جناية لا تغتفر، وسجل عليهم التاريخ تقصيراً أي تقصير.

ويتبين لي أن العامل الأكبر في هذه الفوضى الصاخبة التي تجتاحنا هو فقداننا الشعور القومي الصحيح الذي يوحّد جهودنا، وينظم قوانا الروحية ، ويفيض على نفوسنا صفاء وركوناً واطمئناناً . ولقد يعجب البعض من هذا القول، إذ يلتفت حواليه فيرى شؤون الأمة العامة على كل لسان يتحدث بها الكبير والصغير والغني والفقير، ويسمع أسماء قادة الأمة وزعمائها تتردد في المجالس الخاصة والمحافل العامة ، ويلمس في جو البلاد اهتزازات وتيارات مفعمة بمظاهر القوة والحياة . أفننكر بعد هذا كله الشعور القومي ، وسريانه في قلوب الأمة ونفوسها ؟

الحق ان كثيراً من هذا الذي نرى ونسمع ونلمس لا يبلغ قرارة النفس، ولا يكيّف صورة الحياة. فإذا استثنينا من

تدفعه إلى هذا الاهتمام في الشؤون العامة غايات وأطماع دنيوية - وهم كما يعلم الجميع، كثيرون- وجدنا ان القلة الباقية موزعة بين فريق أكبر يتخذ المسائل الوطنية والقومية ملهاة يملأ بها فراغه ويسرّي بها عن نفسه عندما يفرغ من عمله الخاص فيجلس إلى صحبه و يبادلهم الأحاديث الجدية أو غير الجدية يتناول بها هذا أو ذاك من الشخصيات، أو هذه أو تلك من مشاكل البلاد، ويوهم نفسه وصحبه أنه يؤدي بذلك واجبه الوطني ويلتحق بصفوف العاملين في حقل القومية الصحيحة ، وبين فريق أصغر تلتهب في نفسه عاطفة وطنية صادقة، لكن هذه العاطفة لم تخرج من حيز الشعور إلى حيز العقل ، فتراه مدفوعاً بشتى الانفعالات النفسية والتأثرات العاطفية تقذف به ذات اليمين وذات اليسار، دون أمن أو استقرار.

وغني عن البيان أن هؤلاء جميعاً ، بالرغم مما يحدثون من جلبة وضجيج، لا يؤلفون إلا قسماً من الأمة . أما السواد الأكبر فلا يتحسس بشيء من هذا، وان رفع صوته أو مدّ يده فعن دافع خارجي وقتي لا عن قوة داخلية دائمة. وغني عن البيان أيضاً ان هذه العوامل المختلفة التي تحرك من يتحرك منا- سواء أكانت المصلحة الشخصية، أم التلهي الفارغ الذي نملأ به حياة أفرغ منه، أم العاطفة الوطنية الجامحة - لا يمكن أن تكون أساساً متيناً يبنى عليه كيان الأمة ويشاد صرحها الجديد . ولا يمكننا أن نقيم هذا الأساس إلا إذا خلصت عاطفتنا الوطنية من أدران المادة، وارتفعت إلى حيز العقل، فأصبحت شعوراً يدعمه الفكر، أو بالأحرى فكراً يذكيه الشعور، وسرت في جوانب النفس كلها، فملأتها " وعياً " قومياً .

هذا الوعي القومي الذي يعرف مايريد ويسير إليه بعزم صادق مطمئن، الذي يدري من أين أتى وإلى أين يسير، الذي لا يسمح لأية مصلحة خاصة أو عاطفة آنية أن تحيد به عن هدفه الأوحد وغايته القصوى، هذا الشعور الذي أصبح فكراً ، وهذا الفكر الذي اكتسب بالشعور حياة، هذا الوعي القومي العاقل المتنبه لم تعمر به بعد إلا أنفس قليلة من هذه الأمة العربية ، ولم يتصل تياره إلا بفئة ضئيلة متفرقة ، مع أنه منبع كل نهضة قومية صحيحة ، ولن تستطع أمة أن تحقق آمالها وتبلغ

غاياتها إلا عندما يسود هذا الوعي نفوس أبنائها - أو على الأقل نفوس القادة منهم - ويشيع في جوانبها فهماً ودراية ونوراً .

***

فلنتساءل اذن : على ماذا يقوم هذا الوعي القومي؟ ومن أي المصادر يفيض؟

يقوم الوعي القومي أولاً على معرفة ماضي الأمة معرفة صحيحة، وفهم العوامل الطبيعية والتاريخية التي كوّنتها حتى جعلتها في حالتها الحاضرة، والكشف عن مصادر قواها الروحية الخاصة التي تمتاز بها عن غيرها من الأمم . فالعربي الواعي قومياً يعرف من أين أتى، وكيف تحدرت أمته ، ومن أي الجذور نبتت حياته الحاضرة . يضع يده على أصل الجنس العربي، ويتابعه في شيوعه من الجزيرة إلى ما حولها من البلدان ، ويسايره في سيادته على الاجناس الأخرى وامتزاجه بها ، وفي ما تكوّن من هذا الامتزاج من أمة مختلطة الدم والجنس ، موحّدة في ما هو أهم من هذا كثيراً في الارتباط القومي ، ألا وهو: اللغة ، والتقاليد، والجهاد الماضي، والمصالح الحاضرة، والمقبلة . وهو يعرف ، مع هذا كله ، ما يقوله العلماء الحديثون عن معنى "الجنس "، وعن مقدار ما للوراثة من جهة ، والمحيط من جهة أخرى ، من أثر في تكوينه ، وعن نوع علاقته القومية ، وعن الحركات السياسية والمذاهب الاجتماعية والفكرية التي أثارتها مشاكل " الجنس " في الشرق والغرب .

وينظر، بعد الجنس، في اللغة، فيعرف من أين نشأت وكيف انتشرت ويفهم ميزاتها على غيرها من اللغات، والقوى الخاصة التي جعلتها تسود سيادة تامة على هذه الأقطار الشاسعة. فلكل لغة نبوغ خاص وميزات تتفرد بها عن غيرها من اللغات . واللغة العربية ، من بين اللغات جميعاً ، قد أظهرت حيوية بالغة في دقة انتظامها ، وفي سعة انتشارها، وفي مرونتها التي جعلتها أداة صالحة لنقل شتى العلوم والآداب . وهذا كله مما يهيب بنا إلى استكشاف سر هذه الحيوية وفهم القوى الخاصة التي تمثلها لغتنا ، كي نستغل هذه القوى في تنظيم حاضرنا وبناء

مستقبلنا .

غير أن اللغة ليست سوى مظهر من مظاهر الثقافة . والوعي القومي يتطلب أن يكون لنا فهم صحيح لجوهر الثقافة العربية : فنعرف البذور التي تكوّنت منها، والمظاهر المختلفة – من علم وأدب وفن- التي تجلت فيها، والخصائص التي امتازت بها، والرسالة التي أدتها إلى العالم، والدور الذي لعبته في تكوين التمدن الحديث . وليس من شك في غنى الثقافة العربية، وشمولها، وتشعب مناحيها. فلا بد أن يكون وراء هذه الميزات قوى روحية خاصة ، ومنابع حياة فياضة ، وقد وجب علينا أن نكشف عنها ونسبر غورها لندرك حقيقة هذه الثقافة التي ورثناها عن السلف، والتي تكوّن اليوم القسم الأهم والأبرز من شخصيتنا .

وأخيراً يتطلب الوعي القومي الملتفت إلى الماضي أن نلمس روح تاريخنا ، ونتصل بالعوامل التي كوّنت هذا التاريخ . فلقد جاهد العرب في ماضيهم جهاداً حسناً في شتى نواحي الحياة، ففتحوا آفاقاً واسعة في ميادين السياسة والاقتصاد والعلم، ثم عادوا فانطووا على أنفسهم وتقلص ظلهم . وانه لمن الخطورة بمكان أن نعرف حقيقة العوامل التي تأثروا بها في الحالتين جميعاً . ويهمنا بصورة خاصة أن ندرك القوى الداخلية الفاعلة في نفوس العرب وقلوبهم وأرواحهم، لأن الظروف والأحوال الخارجية – على أهميتها في تكييف التاريخ وتسييره – ليست شيئاً إزاء القوى الداخلية التي تجيش في صدور الأمة. فلكم من أمة خلناها تنهار بغزوة شعب غريب كانت في الواقع قد تفسخت داخلياً وتهدمت في الباطن قبل أن تتهدم ظاهراً ، ولكم من أمة أخرى أحاطت بها شتى الأحداث والكوارث ، فلم تطفىء روحها ولم تمح شخصيتها .

وصفوة القول إن الأمة العربية لها شخصية خاصة تنفرد بها عمّا سواها من الأمم : شخصية مؤلفة من عناصر مختلفة – أهمها اللغة ، والثقافة ، والتاريخ المشترك – قد تحدرت جميعها من أصول الماضي ، فأول واجب قومي يترتب علينا هو فهم هذه العناصر فهماً يكشف لنا عن روحها ويوضح لنا جوهرها ، كيف نعرف حقاً من نحن ، وكيف تكوّنا .

ومن الواضح أن هذا الوعي القومي الذي أصف ، بعيد كل البعد عمّا نردده كثيراً من التغني بمآثر السلف والإشادة بفضل الأجداد ، وعمّا يتفجر في صدورنا من الاعتزاز العاطفي بالماضي المجيد والتاريخ الزاهر ، فهو قد بلغ درجة أبعد من هذا الاعتزاز أو ذاك التغني لأنه قد تخطى حدود الشعور والعاطفة ودخل حيّز الفهم والمعرفة . ولست أقصد من هذا أن أضع من قدر العاطفة والشعور في الجهاد القومي ، ولكنني لست أراهما كافيين لبلوغ الغاية التي نرجو ، إلا إذا اقترنا بالإدراك الواسع والفهم الدقيق . فالفرنسي الواعي قوميا يعرف بوضوح ودقة مزايا لغته ونبوغها الخاص ومقامها بين غيرها من اللغات ، ومثله الألماني الذي ينشر امامك خصائص ثقافته والأيادي التي لها على غيرها من الثقافات، والانكليزي الذي يعرض لك تاريخ أمته فيشير ، بفهم وإدراك ، إلى الدور العظيم الذي مثلته وإلى الروح التي تجلت فيها في مختلف الأدوار . أما نحن العرب ، فكم بيننا من يعرف معرفة صحيحة من نحن ، وكيف تكوّنا ، وما هي حقيقة شخصيتنا وجوهر روحنا ؟ كم بيننا ، بكلمة أخرى، من تفتح في نفسه الوعي القومي الملتفت إلى الماضي؟

***

على أن ماضي الأمة وتاريخها الغابر ليسا في الواقع إلا الجذور التي نبتت منها غرسة الحاضر ، وإذا كان من المهم أن نلمس الروح المتغلغلة فيهما فلكي ندرك إدراكا صحيحاً ما تولّد عن هذه الروح من مظاهر حياتنا الحديثة . فالوعي القومي الكامل يتطلب منا ، إذن أن ننظر في الحاضر نظراً مدركاً ، وأن ننفذ بأبصارنا وراء الحوادث الآنية التي نتخبط فيها والمظاهر السطحية التي تستهوينا إلى لب حياتنا الحاضرة وجوهرها كي نفهم حقيقة معناها ووجهة سيرها . ولما كانت هذه الحياة الحاضرة وليدة عاملين رئيسيين يتفاعلان فيما بينهما تفاعلاً شديداً هما : الشخصية العربية كما تكوّنت عن محيط هذه البلاد الطبيعي وميراثها الاجتماعي والثقافي ، والحضارة العربية السائدة على المجتمع الحديث ، فقد وجب ان يحيط ادراكنا بكل منهما إحاطة كاملة صحيحة .

أما الشخصية الداخلية للأمة العربية فقلّ بيننا من وقف على كنهها وقدّرها حق قدرها ، وندر منا من وضع يده من جهة على منابع قوتها ومصادر حيويتها ، ومن أحس من جهة أخرى بمواطن ضعفها وعوامل تفككها وتراخيها . ففي هذه الملايين من البشر الذين يؤلفون الأمة العربية قوى جسدية وعقلية وروحية لا يستهان بها قد أورثهم إياها محيطهم وتاريخهم . ولا تزال أكثر هذه القوى في حالة الكمون ، لم تظهر بعد ولم تتحقق قابلياتها ، بل مدخرة في الأجسام والعقول والأرواح . فعلينا ان ننفذ إلى منابع هذه القوى ، حتى نستطيع استغلالها في خلق حياتنا الجديدة . كم في عقول الشبيبة العربية مثلاً من ذكاء فطري يبقى مخزوناً لا يستفيد ولا يفيد لانعدام وسائل بعثه في محيطنا ، أو يهدر على التافه من الأمور فيذهب ضياعاً دون ان يكون له أثر في البناء القومي ، حتى إذا أتيح له أن يتعرض لمؤثرات الحياة الحديثة في الغرب تفتحت مواهبه وتجلت قواه ، كما يبدو في هذا الانتاج الباهر الذي ولّده المهاجرون من العرب في مختلف ميادين السياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع، والثقافة . وكم في صدور أفراد هذه الأمة من إيمان وتضحية وإخلاص لا تجد لنفسها مجرى سامياً نبيلاً تتدفق فيه ، فتفيض على المعتقدات البالية والخرافات السقيمة وتحييها في النفوس الظمأى ، أو تضيع بين أحجار المادة وصخورها وتختلط بأدرانها وأنجاسها فينقلب جمالها قبحاً ونفعها ضرراً وإثماً . هذا قليل من كثير من هذه القوى المدخرة في شخصيتنا ، والتي يترتب علينا قدرها وقياسها ، والإيمان بها إيماناً مبنياً على الدرس العميق الواضح - لا على مجرد الشعور السطحي الغامض - لأن فيها أملنا ، وعليها اعتمادنا ، وإليها مردنا ومصيرنا .

كذلك يفرض علينا الوعي القومي الرشيد أن نحس إحساس فهم وادراك بعوامل الضعف في الشخصية العربية الحاضرة وبالمشاكل العديدة المتشابكة المتولدة عنها وأن نجابه هذه العوامل والمشاكل مجابهة واقعية صريحة لا عوج فيها ولا التواء . ففي البلاد العربية جهل متفش وفقر سار ، وتفسخ عقلي وأخلاقي لا يعلم إلا الله حدّه ومداه . وفيها مشاكل اقتصادية واجتماعية وروحية متشابكة النواحي مستعصية الحل . فليس من الخير في شيء أن نتهرب من هذه الأمراض والمشاكل إلى عالم الخيال الفارغ ، ونخدع

انفسنا بالظاهر من الأمور خوفاً من مجابهة الباطن . ليس من الخير في شيء أن نشيح بوجهنا عن الجهل والتعصب حين نعلم علماً أكيداً في صميم نفوسنا ما يغشى محيطنا من جهل ذريع وتعصب شنيع . وليس من الخير في شيء أن تبهرنا أنوار الجهاد الوطني فتعمي بصائرنا عمّا يتفشى في مجموعنا من جراثيم المادة القتالة والأطماع المفسدة، أو أن تملأ آذاننا الأصوات الداعية إلى التضامن والاتحاد فتصمها عن سماع صرير التمزق وقرقعة الانقسام . لا! وإنما الخير أن نواجه هذه المشاكل مواجهة جرأة وصراحة، وأن نعرف قدرها ونقيس مداها، كي نعد العدة الوافية لحلها والتغلب عليها. ونحن إذا فعلنا ذلك، أمكننا لا أن نزيل هذه العقبات الجسام من طريقنا فحسب، بل ان نجعل منها مصادر حياة جديدة تبعثها في نفوسنا، ونشاط متحفز تحييه في قلوبنا فينقلب ضعفنا المستمد منها قوة، وتراخينا الناشىء عنها تضامناً واتحاداً . وجملة القول إن الوعي القومي يزن الأمور بموازينها الصحيحة ، ويضعها في مواقعها المختصة بها، وينظر إلى كل ما في شخصية الأمة الداخلية من منابع قوة أو مواطن ضعف نظرة واقعية يخترق بها إلى صميمها ويجلو حقيقتها.

أما العامل الثاني الذي تنشأ عن تفاعله وشخصيتنا الداخلية الحياة العربية لحديثة فهو: "الغرب"، بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من قوى وعوامل غزيرة متشابكة . ولست أعني بالغرب بلاد أوروبا وأميركا وشعوبها فحسب، بل كل بلد أو شعب قبل هذه الحضارة الحديثة التي نشأت في الغرب وتأثر بها تأثراً عميقاً واسعاً :فاليابان الشرقية أقرب فعلاً إلى أوروبا منها إلى أكثر مناطق آسيا. وما من أحد ينكر ان العوامل والقوى التي يمثلها الغرب هي العنصر السائد في عصرنا هذا. وسواء أردنا ام لم نرد فالغرب محيط بنا من جميع جوانبنا، آخذ علينا كل سبيل من سبل حياتنا، سواء أشئنا أم لم نشأ بهذا العنصر المندفع بقوة لا تقدر سوف يفرض نفسه علينا ويعمل في تكوين مستقبلنا . فحري بنا اذن أن نفهمه حق فهمه ، وندرك كنهه، ونعرف ماهيته، كي نحسن مجابهته ويكون اتصال روحنا بروحه على نور وهدى وبصيرة لا بفعل الصدف الطارئة والأحوال المسيّرة .

واني لأخشى كثيراً أن سواد هذه الأمة الأعظم لم يفهم الغرب بعد فهماً صحيحاً ولم يصل بادراكه إلى لبه ومتفجر حياته ، بل لا يزال مأخوذاً بمظاهره الخارجية وأنواره الخلابة . فالغرب في نظرنا هو ما يحيط بنا من سيارات سريعة الجري ، وملاه باهرة النور، وأدوات عجيبة الصنع، وإذا تقدمنا درجة أخرى في وعينا وإدراكنا أحسسنا بما يفيض عنه من جيوش في زمن الحرب، ومن نظم وعهود في أوقات السلم ، أو لمسنا نتفاً متفرقة ونواحي فرعية مما ينتج عقله من أدب وعلم . وأنا أزعم أن هذه كلها ليست جوهر الغرب ، بل هي مظاهر خارجية نقف عندها فتلهينا عن القوة الحقيقية التي تفعل فيها وتحركها . فوراء هذا جميعاً نظام اقتصادي متشابك خلقته الثورة الصناعية الحديثة يرمي إلى استغلال موارد الطبيعة ومواهب الإنسان وقابلية الآلة الحديثة في سبيل زيادة الإنتاج وتنظيمه . فكلما زاد إنتاج الأمة وانتظم ، توافر غناها وفاضت ثروتها وتمكنت من أن تفرض نفسها على الأمم الأخرى . و ما دامت موارد الأمة غير مستغلة استغلالاً تاماً ، وسبل إنتاجها غير موجهة توجيهاً قومياً ، فلا يمكن أن يكون لها صوت مسموع أو يد مدبرة . وكل ما في الغرب اليوم من معامل ومعاهد وأنظمة حكومية ، وما يطغى عليه من أزمات اقتصادية وتيارات اجتماعية وثقافية ، إنما هو- في أكثره- وليد هذا النظام الاقتصادي المتشعب المعقد . ومهما قال الناس في أخطاء هذا النظام ومراكز ضعفه ، ومهما تذمروا من تضارب عناصره وتطاحن أجزائه ومما يجره على العالم من فوضى وارتباك ، فليس من شك في أنه سيبقى في جوهره- أي في ما يرمي إليه من استغلال موارد الطبيعة واستخدام الآلة إلى أقصى حد ممكن- النظام السائد في المستقبل، وان لا سبيل إلى الرجوع إلى ما كان عليه السلف، أو ما يدعو إليه بعض المصلحين، من أنظمة اقتصادية بسيطة فطرية. ونحن إذا أدركنا النظام الاقتصادي الحديث على حقيقته، وميزنا حسناته من سيئاته، أمكننا أن ندخله في حياتنا على نور هذا الادراك والتمييز، واستفدنا من اختبار الغرب الواسع، فتجنبنا ما أصاب الغرب منه من مضار وآلام، وقطعنا في سنوات ما توصل إليه الغرب في أجيال . ولعل أبرز ما يمتاز به هذا النظام الاقتصادي هو التنظيم الدقيق الذي يؤلف بين جميع أجزائه، ويسري في جميع نواحيه، فيوحدها ويربطها ربطاً متيناً كارتباط

أجزاء هذه الأدوات العجيبة التي يطلع علينا بها الغرب حيناً بعد حين . هذا التنظيم الذي ينبعث من معامل الغرب ومصانعه قد ساد الحياة الغربية في جميع مظاهرها، فسرى إلى النفوس وكيّف العقول بحيث أصبح جزءاً من شخصية الغربي يتجلى في شتى نواحي حياته السياسية والاجتماعية والثقافية . وما من أحد يلقي نظرة على الحياة العربية الحديثة إلا ويلحظ ان روح التنظيم الصحيح لم تتسرب بعد إلى نفوسنا ولم تختلط بلحمنا ودمنا، ولعلها لن تبلغ هذا الحد إلا عندما يسود حياتنا هذا النظام الاقتصادي المتماسك الأركان المتصل الحلقات الذي يكيّف حضارة الغرب الحديث.

ووراء اقتصاد الغرب، علم الغرب. ولست أعني بالعلم هذه المعلومات المتفرقة التي نستمدها من الكتب المدرسية أو المؤلفات السطحية فنطلي بها عقولنا، ونصبغ نفوسنا، ونعتز بها في زهو واغترار، وإنما أعني تلك الطريقة في التفكير، وذلك الأسلوب في التحليل الذي يثبت في العقل ويشيع في النفس عندما يعاني المرء التدريب العلمي الصحيح : أعني البحث الدائم عن الحقيقة، والشك اليقظ في ما لا يوافق العقل، والاستنتاج الصحيح والمنطق السليم . أعني التواضع النفسي الذي يقدر ضآلة المعلوم بالنسبة إلى المجهول ، والاتزان العقلي الذي يقيس الأمور بمقاييسها الصحيحة، والاطمئنان الروحي الذي يفيض على النفس من سعيها الحثيث إلى الحقيقة واشراقها بها. ويخيل إليّ أنه لا يزال بيننا وبين هذه المزايا العلمية الصحيحة خطى واسعة ومراحل بعيدة ، وأنه يحسن بنا أن نقبل على علم الغرب بقلوب متواضعة ونفوس ظمأى ونروي عقولنا من منابعه النقية . وإن كنت أخشى شيئاً فهو هذا الطغيان الأدبي الذي يسود حياتنا العقلية، والذي يحمل لنا شتات أسماء الأدباء في الغرب وفتات آرائهم ومذاهبهم فنتهالك عليها ونتجادل ونختصم فيها، ونلهو بها عن القوى العقلية الكبرى التي تهيمن على الحياة الحاضرة : وهي قوة العلم المنصرفة إلى مجابهة مشاكل الإنسان في الطبيعة والاجتماع . ومن الخطأ الفاضح أن يشكو بعضنا من كثرة العلم ووفرة المتعلمين ، ويتذمر من الأزمة الاجتماعية والفكرية الناشئة عن ذلك. فما كانت كثرة العلم لتضر بأمة من الأمم أو تعيقها عن سيرها، وإنما هو طغيان العلم الزائف على العلم الخالص،

وتفشي المعلومات الخارجية السطحية التي تذهلنا عن الروح العلمية الصحيحة . ولعلنا لم نكن في يوم من الأيام أحوج إلى أن نعي هذه الروح العلمية وعياً رشيداً، وندرك مقامها في حاضرنا ومستقبلنا، منا في هذا العصر الحديث.

ووراء علم الغرب، فلسفة الغرب. وفي الفلسفة تجتمع شتى التيارات الفكرية والعاطفية وتتجه كلها نحو هدف واحد في نسق واحد . وقد ظهرت في تاريخ الغرب عقول جبارة جمعت هذه التيارات، ودفعتها موحدة في مجارٍ غزيرة فاضت على الحياة الغربية فكيّفتها ولوّنتها بألوان خاصة. وليس! من شك في أن هذه العقول تختلف فيما بينها وان ألوان فلسفتها يتباين بعضها عن بعضى، وليس من شك في أن المجاري التي تدفقت فيها تباعدت وتنافرت أحياناً كثيرة، ولكن وراءها كلها اتفاقاً جوهرياً ووحدة روحية ، ومنبعاً أصلياً يمدها جميعاً . وهذا ما يجعل عامة الغربيين ينظرون إلى العالم نظرات متشابهة ، ويقدرون قيم الحياة بمقادير متقاربة ، يختلفون بها عمّا سواهم من الشعوب التي لا تعيش في جوهم ولا تصدر عن فلسفتهم . واني لأعتقد اعتقاداً مكيناً أنّا لن نستطع أن نفهم الغرب على حقيقته، ما لم نفهم أفلاطون وأرسطو، واغسطين واكويناس ، وديكارت وكانت، وهيغل ونتشه، وسواهم من قادة الفكر الذين فرضوا عقولهم على الغرب ووجهوا تياراته الفكرية وجهتها الخاص . ولنذكر هنا أيضاً ما تبين لنا في أمر العلم من أن المعلومات الفلسفية شيء، والفلسفة - كنظرة عقلية وهيئة نفسية - شيء آخر، وان فهم الفلسفة الغربية الذي ننشد هو تلك المعرفة التي تخترق بها أذهاننا إلى قلب التفكير الفلسفي، وتلتهب بالروح الفلسفية المنبعثة منه.

النظام الاقتصادي ، ومن ورائه العلم ، ومن ورائهما الفلسفة : تلك هي، في نظري ، العناصر الأساسية التي تتألف منهما حقيقة "الغرب". وخليق بمن أشرقت نفسه بالوعي القومي الواضح أن يفهم هذه العناصر الثلاثة فهماً صحيحاً فيلمس بذلك روح الحضارة الغربية المتدفقة علينا. فإذا جمع هذا الفهم إلى ادراك شخصية الأمة الداخلية ، في مناحي قوتها وضعفها، نظر

نظرة صائبة إلى الحياة العربية الحاضرة المتكونة من تفاعل هذين العاملين العظيمين .

***

على أن الوعي القومي لا يكتمل إلا إذا تقدم من فهم ماضي الأمة وإدراك حاضرها إلى تقدير مستقبلها وتصوير مصيرها . فالأمة التي لا تعرف معرفة يقينية واضحة الغاية التي تسير إليها، ولا تنظم وسائلها لبلوغ هذه الغاية ، مقضيّ عليها بالفشل والخسران في ميدان هذه الحياة، ومقدّر لها أن تذهب وتبيد دون أن تخلف وراءها أثراً في سجل التاريخ . ونحن إذا أنعمنا النظر في هذه المسألة الخطرة في حياتنا القومية وجدنا ان الغاية القصوى لأية أمة من الأمم إنما هي الرسالة التي تؤديها هذه الأمة للثقافة الإنسانية والتمدن العام . فالأمة التي لا تشعر بأن لها رسالة في هذه الحياة لا تستحق هذا الاسم، بل لا يمكنها مطلقاً أن تبلغ مستوى الأمة الصحيح إذ لا يكون ثم مبرر لوجودها أو غاية لكيانها. وما الاستقلال والوحدة في واقع الحال سوى وسائل لبلوغ هذه الغاية الأخيرة . فإذا نحن طلبناهما واندفعنا وراءهما اندفاع المستميت فلأنهما يحققان لنا الوسائل ويفتحان أمامنا السبل لأداء رسالتنا وتبليغ دعوتنا .

وخليق بالأمة العربية أن يكون لها رسالة رفيعة بين الأمم . وخليق بكل عربي أن يشعر بأن محيط أمته الطبيعي وتاريخها الخاص قد أهّلاها لمهمة لم تتوافر شروطهـا لأية أمة أخرى، وأن القوة المدبرة وراء هذا الكون قد أعدت العرب لأمر لا يستطيع أي شعب آخر أن يقوم به دونهم . ذلك هو الشعور الذي يمتلك الألماني عندما يحدثك عن أمته وعن مستقبلها، فجميع عناصر حياته : العلم، والفن، والأدب، والقوة الحربية، والتنظم الاقتصادي، كلها تكتسب قوة جديدة وتصطبغ بألوان زاهية ، وتأتلف في صورة واحدة هي الرسالة التي حفظ القدر للأمة الألمانية- ولها وحدها- امتياز تأديتها، بل واجب هذه التأدية . ومثل هذه العقيدة تملأ نفس الانكليزي، والفرنسي، والياباني، وكل من يطمح إلى أن يكون لأمته مقام على الأرض وذكر في التاريخ . وليس يخاف ان هذا الشعور برسالة قومية قد يبلغ في أحيان كثيرة حد التطرف ، وان الأمم قد تتخذه ستاراً

لأطماعها المادية ولأغراضها في السيادة والتغلب - كما فعلت الدول الغربية في تاريخها الاستعماري، ولا تزال، وكما بدأت تفعل اليابان في هذه الأيام - غير أن الخطر عندنا ليس في الغلو والإفراط ، بل في التفريط والنقصان، وليست مصيبتنا حب السيطرة وفرض السلطان، بل خور العزم وضعف الايمان . ونحن إذا فكرنا وشعرنا برسالة قومية كبرى اكتسب جهادنا في سبيل الحرية والاستقلال معنى جديداً ، واكتسى سعينا إلى الوحدة والسيادة حياة بهية، واستمددنا من هذه الغاية القصوى التي نضعها نصب أعيننا قوة مضاعفة وهمة مزدوجة لبلوغ الوحدة وتحقيق الاستقلال .

وليس هذا الذي أقوله عن رسالة الأمة العربية مجرد شعور وهمي يتسلط على النفس ويسري في القلب، وإنما هو ايمان مبني على المقارنة والاستنتاج . فليس من المعقول ان الأمة العربية التي أنزلتها الأقدار في هذا الموقع الممتاز من الكرة الأرضية ، و التي تفتحت مواهبها في العصور الغابرة عن مآثر باهرة في شتى نواحي الحياة ، أقول ليس من المعقول ان أمة كهذه لا تكون لها مزية معينة تتفرد بها عن غيرها من الأمم ، و يد خاصة تسديها إلى التمدن البشري. أما إذا أردنا تحديد هذه الرسالة بالضبط ، ومعرفة ماهيتها الحقيقية ، فقد وجب علينا ان نقوم بدروس عميقة وتأملات بعيدة ، تتناول المحيط الطبيعي ، والأصول الجنسية ، والتطور الاجتماعي، والتراث الثقافي، وتتعمق دون هذه المظاهر كلها إلى روح الأمة وشخصيتها. ومن النقص الشائن ان قادتنا ومفكرينا لم يقوموا بعد بهذه المهمة الخطيرة في حياتنا القومية ، ولم يرسموا لنا رسالتنا الخاصة بصورة لا يشوبها غموض . أو ابهام . ولكن لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا ان عمل الأمة العربية سيكون في المستقبل كما كان في الماضي : فكما أن العرب استطاعوا في العصور الغابرة أن يهضموا مدنيات اليونان والرومان والفرس والهند ، ويمتصوها بعقولهم النشيطة ونفوسهم الظمأى ثم يخرجوها إلى العالم وحدة منسجمة غنية المادة باهرة اللون، كذلك ستكون مهمة العرب في الأعصر الآتية أن يتشربوا علم الغرب ويجمعوا إليه العناصر المختلفة التي تنشأ في الغرب والشرق كردّ فعل له ، ويؤلفوا بينها كلها في وحدة جديدة تكون عنوان الحياة المقبلة ويفيض بها العرب

على العالم كما فاضوا عليه بمدنيتهم الباهرة في القرون الماضية.

ولكن، سواء أكانت هذه رسالتنا الحقيقية أم لا، فحسبنا أن نعتقد أن لنا رسالة ما، وأن نؤمن انها أعدت لنا وأننا أعددنا لها، وحسب قادة الفكر بيننا أن ينصرفوا لايضاح هذه الرسالة، وتبيين هذه الغاية، فيفتحوا أمامنا الطرق ويمهدوا لنا السبل والوسائل.

***

كفى بما تقدم تصويراً لما أقصد من الوعي القومي الذي قلت إنه القوة العظمى التي نحتاج إليها في هذه المرحلة الخطرة من حياتنا. وقد تبين ان هذا التنبه العاقل يقوم على أركان ثلاثة: فهم صحيح لماضي الأمة الذي تحدرت منه شخصيتها، وتقدير متزن لقوى الحاضر وعوامله، وايمان متين بهدف الغد ورسالة المستقبل. وقد تبين لنا، ولا شك، ان هذا الوعي القومي لا يمت بصلة إلى الاهتمام الفاتر بالسياسات المحلية الذي طغى علينا وأفسد حياتنا، بل هو أرفع منه وأسمى، وبقدر ما يمتلك النفس ويسود العقل يخف هذا الهيجان الذي نتخبط فيه وتهدأ الحمّى التي تثور في جسمنا وننظر إلى الأمور نظرة قومية كبرى لا نظرة محلية ضيقة. ولرب معترض يقول إن هذا الوعي القومي غير متيسر لأفراد الأمة جميعاً، وإنا إذا نظرنا إلى الأمم المتيقظة في الغرب والشرق وجدنا ان عامتها قلما تبلغ هذا الإدراك العميق الشامل الذي وصفنا. والجواب عن ذلك أن الاختلاف واقع في الدرجة لا في النوع، وان سواد الأمم الحية قد بلغ من هذا الإدراك حداً أبعد كثيراً مما بلغه سواد أمتنا، وقد يكون أبعد مما وصل إليه قادتنا وأولياء أمورنا.

والمهم في أمر هذا الوعي القومي إن إيقاظه فى النفس ليس من اختصاص قادة السياسة وأرباب الحكم فحسب، بل إن كل فرد من افراد الأمة يستطع أن يساهم في هذا الإيقاظ أيا كان عمله أو شأنه. فمجال العمل فيه مفتوح أمام الموظف في مكتبه، والصانع في معمله، والصحافي في جريدته، والمعلم في مدرسته، بل أمام كل من تقرّبه طبيعة عمله إلى نفوس مواطنيه وتربطه بهم. ومن هنا استطعنا أن نقدر مبلغ ما يمكننا تحقيقه من

هذا القبيل، لو أن جميع المتنبهين المدركين بيننا تعاونوا على هذا العمل الإحيائي كل من ناحيته ، إذن لتفتحت نفوس هذه الأمة بأسرع مدى وتنبهت عقولها بأيسر زمن .

وأراني مدفوعاً هنا إلى أن أشير إشارة خاصة إلى الدور العظيم الذي تمثله المرأة في هذا الحقل الخصيب. فالمرأة- صديقة للرجل ، أو زوجة له ، أو أماً له أو لأولاده - قوة لا تقدّر في تكييف حياة الأمة وإيقاظ نفسها. وفى كل طور من أطوار حياتها فرص لا تعد ولا تحصى تنكشف لها فيها عقول أفراد الامة وأرواحهم . ولرب شرارة واحدة من نفسها المتقدة تكفي لتنبيه أعظم القوى في تلك العقول ولبعث أشد التيارات في هذه الأرواح .

ولكن كيف يمكن المرأة العربية أن تساهم في إيقاظ الوعي القومي ، إن لم تكن هي نفسها قد أحرزته وامتلأت نفسها به ؟ وكيف يمكن الأمة العربية ان تبلغ هدفها وتحقق غايتها إذا كان نصفها الأفضل منطفىء النفس، خامد الروح ؟ لقد سمعنا كثيراً في المحافل النسائية وسواها عن قضية المرأة ، وعن المرأة العربية بوجه خاص، ولست أريد الآن أن أعيد ما اعتدنا ترديده من أقوال وآراء في هذا الموضوع . وإنما هو يقين متمكن من نفسي ، واقتناع شديد يلح عليّ في أن أجاهر بما يخالجني، وأؤكد بكل ما أستطع من قوة مقام المرأة العربية في تنبيه هذا الوعي القومي : سواء بما تحيي في النفوس من ماضي الأمة ، أو بما توجه إليه العقول من حاضرها ، أو بما ترسم من غايتها في مستقبلها . ولعل الدورالذي تمثله في هذه الناحية الأخيرة - أي في رسم الغاية وايضاح الرسالة - أشد أعمالها خطورة و أعمقها أثراً .

هذا هو الواجب الأسمى الملقى على عاتق المرأة العربية . وهذا ما يجب ان تفهمه نساؤنا ، بل ما يجب ان يفهمه أيضاً رجالنا : لأن نهضة المرأة العربية التي تؤهلها للقيام بهذا العمل القومي الخطير منوطة بالرجال والنساء معاً ، وإن كان مبعثها الأول والأخير هو النساء انفسهن .

***

في موقع ممتاز من الكرة الأرضية ، وعلى ملتقى الطرق بين الشرق والغرب ، وفي وسط مجاري الثقافة والمدنية ، تحيا امة قد تشرّبت عصارة ماضيها ، وتقبلت وحي تاريخها وأدركت كنه حاضرها ، وعرفت جوهر العالم الذي فيها والعالم الذي حولها ، وتطلعت إلى مستقبلها بنظر ممدود أبداً إلى الأمام ، وقوة مستمدة من هدف منصوب وخطة مرسومة . أمة قد نالت الاستقلال فعرفت معنى الاستقلال ، وأحرزت الوحدة فأدركت غاية الوحدة . أمة قد اخترقتها أشعة الحرية فلم تقف عند المادة والجسد ، بل أضاءت العقول وأنارت الأرواح . أمة قد علمت ان السيادة الحقة هي سيادتها على نفسها الصادرة عن فهمها سبب وجودها وماهية كيانها . أمة قد امتلأت قلوب أفرادها بإيمان كل حبة منه تنقل الجبال ، وعلا جباه رجالها ونسائها ضياء كل قبس منه يهدي الأجيال . أمة يكفينا في وصفها أن نقول : قد سرى في نفسها الوعي القومي الكامل . هذا ما نريد الأمة العربية أن تكون . بل هذا ما سوف تكون .

***

المرأة العربية في الحياة القومية

في هذا الدور من النهضة القومية حين يبادر كل فرد من أفراد الأمة إلى تفهم الواجب الذي تفرضه هذه النهضة عليه والمهمة التي تتطلبها منه ، وإلى تلمس الطرق التي تمكنه من أن يؤدي هذه المهمة ويقوم بذلك الواجب ، في هذا الدور الدقيق - دور التنبه والتحفز- يجدر بالمرأة العربية أن تنعم النظر والتفكير في قسطها الخاص الممتاز من العمل القومي ، وفي ما يطلب منها ، ويرجى لها ، من يد فيه ونصيب منه . كذلك يجدر بكل من يهمه تحقيق الأهداف القومية أن يشارك المرأة في هذا التفكير، وأن يساهم في تحديد الغاية وإيضاح الطريق ، كي تسير المرأة العربية إلى أداء واجبها على نور وبصيرة، وباطمئنان ويقين .

كل واجب يقوم به الإنسان لا يكون صحيحاً كاملاً إلا إذا تألف من عنصرين مقترنين : علم وعمل . فالعلم الذي لا يسير بصاحبه إلى العمل المنتج المجدي علم زائف زائل ، والعمل الذي لا يبنى على علم صحيح وفهم دقيق لا يلبث أن تهب عليه عواصف الأيام فتبدده هباء منثوراً. والمعضلة الكبرى في هذا العصر هي أن الناس- إلا أقلهم - يعملون دون أن يعلموا ، أو يعلمون ولكنهم يحجمون عن أن يعملوا . فواجب الفتاة العربية القومي يبتدىء اذن بالعلم الصحيح، وينتهي بالعمل المثمر.

يبتدىء واجبها القومي بعلمها بأحوال بلادها ، وفهمها لمشاكل وطنها وأمتها . فهي لا تكون بنتاً حقيقية لوطنها ، ولا قطعة حية منه ، إذا لم تتصل به اتصالاً روحياً وثيقاً ، وتحس احساساً داخلياً عميقاً بتاريخه الماضي ، ومشاكله الحاضرة ، ورسالته المستقبلة. أليس من المؤسف المخزي ان الفريق الأغلب من فتياتنا المتخرجات في المعاهد المختلفة لا يعلمن هذا العلم ، ولا يحسسن هذا الاحساس ، بل يعشن في هذا الوطن غريبات عنه يتصلن به بأجسامهن، لا بأرواحهن؟ يدرجن على أرض هذا الوطن ويتنشقن هواءه ، ولكنهن لا يلمسن روحه ، ولا

يشاركنه نعيمه وشقاءه . تشغلهن عنه مظاهر المادة الزائلة ، وزخارف الحياة التافهة ، فإذا حلمن طارت نفوسهن إلى أرض غير أرضه ، وسماء غير سمائه ، وإذا أعجبن أو تباهين فبغير تاريخه ، ومآثره ، ورجاله .

وليس من شك في ان المسؤولية الكبرى عن هذه العلة تقع على البيت أولاً ، وعلى المدرسة ثانياً . ولسنا نستطيع أن نتداركها إلا إذا بدأ الآباء والأمهات ، فغرسوا في نفوس بناتهم منذ الطفولة بذور التربية القومية الصحيحة ، ثم جاءت المعاهد المدرسية فتعهدت هذه النبتة بالعناية والتقوية حتى تتفتح زهوراً فواحة العبير ، ثم ثماراً جنية القطاف . فالآباء والأمهات الذين يتخلفون عن هذا العمل يخلّون بأول واجب من واجباتهم القومية ، والمدارس التي تهمله تقصر في تأدية رسالتها ، بل تنقلب عناصر ضارة في كياننا . وكل فتاة عربية قضت سني دراستها دون أن تتهذب هذا التهذيب القومي لا تزال تربيتها ناقصة ، وثقافتها عليلة ، مهما جمعت من العلوم وحازت من الشهادات . فلتبادر إلى سد النقص ، ومداواة العلة ، بدرس أحوال وطنها وإدراك كنه ماضيه وحاضره ، حتى تتصل به اتصالاً روحياً وتصبح جزءاً لا ينفصل عنه . ولتعمل لدى حكومتها، وفي إثارة الرأي العام حولها ، كي يتجه الوالدون من جهة ، والمدارس من جهة أخرى ، اتجاهاً قومياً صحيحاً ، فلا يفوت اخواتها ما فاتها هي ، بل ينشأن على معرفة بلادهن معرفة عميقة ، وفهم حياة أمتهن فهماً دقيقاً ، فيصبحن منها في الصميم ، ولا يعشن- كما تعيش الكثيرات اليوم - على هامش الحياة القومية ، وبمعزل عن تياراتها المتدفقة .

***

فإذا علمت الفتاة العربية هذا العلم - وكان علماً صحيحاً - قادها بطبيعة الحال إلى المساهمة العملية في خدمة بلادها . والعمل القومي الذي ينفسح مجاله أمامها عندئذ عمل واسع الأفق بعيد المدى . ففي كل حركة من حركاتها - إذا أخلصت - مجال لخدمة قومية صحيحة ، وفي كل نبضة من نبضات فؤادها ، وكل ابتسامة تعلو شفتيها ، إحياء لناحية - مهما ضؤل شأنها- من حياتنا القومية. ولسنا نستطيع في هذا البحث الموجز، الذي يقصد إلى الكشف عن الموضوع أكثر منه إلى استقصائه ، ان نحيط بهذا

العمل القومي من نواحيه المختلفة ، فلنقتصر اذن على مظاهره الكبرى .

لنبدأ بها كصديقة ، ثم كزوجة . لقد مزقت قوى العصر الحديث الحواجز التي كانت تفصل بين الشاب والفتاة . فبعد أن كانت الفتاة ، إلى أيام مضت ، محجوبة عن أخيها الشاب ، إذا بها الآن تجتمع به في شتى المناسبات ، وتبادله الود والولاء . والشاب العربي تحيط به اليوم صعوبات هائلة : مشاكل سياسية ، وأزمات اقتصادية ومعاضل اجتماعية ، وفوق هذا كله : حيرة روحية داخلية تتسرب إلى أطراف نفسه ، وتزعزع مبادئه العقلية والخلقية . وكثيراً ما تسودّ الدنيا في عينيه ، ويرفرف القنوط المشؤوم على روحه فيشل فاعليته ويجعله عضواً عاجزاً - بل فاسداً - في جسم أمته . وكثيراً أيضاً ما تلتف حوله أفاعي المادة فتخنقه وترميه إلى الحضيض صريعا فاقد الروح مطفأ الأمل . هنا ينفسح المجال لشريكته المرأة - صديقة أو زوجة - لتؤدي رسالتها الحقة ونصيبها الصحيح . فلقد خلقت المرأة لتكون عون الرجل في محنته ، وسنده في ضعفه ، ونوره في ظلمته . وان القلب ليدمى عندما يلتفت أحدنا اليوم فيرى الكثيرات من نسائنا يقصرن في تأدية هذه الرسالة السامية ، بل غالباً ما تستهويهن أباطيل المادة الزائلة : من ترف في المأكل والملبس والمسكن ، ومن رغبة في الظهور وتهالك على التقليد ، فيغمسن الرجل في بؤرة المادة بدلاً من أن ينشلنه منها ، ويزدن في حلك قنوطه وحيرته بدلاً من أن ينرن بمشعلهن الروحاني سبيله ويبددن ظلماته .

ولا يستصغرن أحد ما في هذا العمل الهادئ المتواضع من الخدمة القومية الفعالة . فكم من زعيم استبسل في جهاده بفضل الروح التي نفختها فيه زوجته ، وكم من رجل استجمع نفسه بعد أن كانت مضطربة مبعثرة بمسحة سحرية سحرته بها صديقته أو حبيبته . وقدماً قالت العرب : النساء أمهات الرجال . ولست أفهم من هذا القول إلا أنهن أمهاتهم بالروح يقبضن بأناملهن الناعمة على أزمّة نفوسهم : فإما يرفعنهم إلى قمة المجد والحرية ، وإما يخفضنهم إلى هوة الذل والعبودية .

أما واجب المرأة العربية كأم ، فليس من الضروري الإفاضة فيه في هذا المقام ، ونحن نعلم علماً لا يدانيه

شك ان الأمة التي تكون في بدء نهضتها ومطلع حياتها تحتاج إلى رجال ونساء أقوياء في أجسادهم وعقولهم وأرواحهم ، وان العامل الأول في خلقهم وتنشئتهم هو الأم التي تتعهدهم في السنين الأولى من حياتهم وتغرس بذور شخصيتهم. فكل ما يمكن قوله الآن هو أن مهمة الأمومة مهمة خطرة ومسؤوليتها جسيمة ، وإننا- نساء ورجالاً - قلما نقدر خطورتها ونضعها في مقامها الذي لها في حياة الأفراد والأمم . فعلى المرأة العربية أن تعدّ لها عدتها وتوفر لها شروطها ، وان لا تقدم عليها إلا وهي شاعرة بعظمتها وخطورتها وأثرها في مستقبل الأمة . وعلينا جميعاً أن نساعدها في خلق هذا الجو وايقاظ هذا الشعور كي تؤدي الأم رسالتها القومية العظمى بأن تخرج للأمة أعضاء أصحاء يحفظون قوتها ويبعثون حيويتها .

بقي أخيراً واجب المرأة العربية كعاملة في الخدمة العامة . ان أعمالنا العامة محاطة بكثير من الصخب والضجيج ، ومن الجعجعة التى نسمعها ولا نرى وراءها طحناً . وليس من الخير في شيء أن تزيد المرأة هذا الصخب المتصاعد، وأن تنحط إلى ما ينحط إليه أكثر رجالنا من التكالب على الوظيفة و الدس والمراوغة والمناورات الحزبية الهدامة . ففي العمل القومي نواح عدة أعمت السياسة والشهوة المادية عين الرجل عنها ، وأخرى لا يستطيع- حتى لو انتبه إليها- أن يعمل فيها ما تعمله المرأة ، التي أعدتها الطبيعة لها اعداداً خاصاً بما خلقت في نفسها من حب واخلاص ، وما أفاضت عليها من شفقة وحنان . في هذه النواحي- وكلها خطير- يقوم واجب المرأة وتتجلى عبقريتها .

فالأمة تعبج بطبقات وافرة من الناس يرفرف فرقها البؤس والشقاء ، ويخيّم عليها الذل والجهل والظلام : في الشوارع أطفال قذف بهم الفقر والجهل إلى هذا العالم وشتتوا فيه حفاة عراة ينغمسون في حومة الرذيلة وينشأون جراثيم قتالة في كيان الأمة . في المعامل والمصانع، في الحقول والمزارع ، نساء ورجال يرزحون تحت كابوس البؤس والفساد والظلم الاجتماعي . في السجون وبيوت الإصلاح ودور الأيتام تعاسة وشقاء ويأس قتّال . وفي هذه كلها- وكثير غيرها- علل وأدواء بوسع المرأة أن تصب عليها إكسير المحبة والحنان فتزيلها ، أو تخفف- على

الأقل- من وطأتها . فلرب ابتسامة ناعمة أحيت نفساً تعسة ورفعتها من وهدتها ، ولرب دمعة رقيقة بدد صفاؤها ظلمات الشقاء الكثيفة ، ولرب نظرة محيية نشرت الأمل بعد اليأس والهناء بعد البؤس. فإذا انتظمت هذه العاطفة الحساسة وترادفت مجاري هذا الغنى الروحاني في ما تنظمه المرأة من جمعيات خيرية واصلاحية ، تدفق البر والإحسان وفاض الحب والحنان ، وكان منها للأمة الخير العميم والنفع الجزيل .

ولعمري إن في هذا لخدمة قومية جزيلة لا يدانيها العمل السياسي أو السعي المادي . وانه لمن أجمل مظاهر نهضتنا الحاضرة وأوفرها مغزى أن جمعياتنا النسائية أخذت تتجه إلى هذه الأهداف القومية وتقوم بما تفرضه من مشاريع اصلاحية مفيدة . ولكن الغاية لا تزال بعيدة والطريق إليها طويلة كثيرة العقبات . فعسى أن تتقدم المرأة العربية فيها ، حتى تتوصل إلى ما أسدته أختها الغربية من المآثر الغراء في هذه النواحي الخصبة من الحياة القومية .

***

ذلك هو واجب الأمة العربية في هذا الدور من حياتنا القومية ، يتجلى في عنصريه : العلم الصحيح ، والعمل المنتج ، داخل البيت وخارجه . وقد بان ان مهمة المرأة العربية هي في جوهرها مهمة روحية ، وان عملها بمظاهره المختلفة : كصديقة ، أو زوجة ، أو أم ، أو مجاهدة في الخدمة العامة ، هو عمل بعث وإحياء لما خمد من قوى الأمة ونضب من مواردها النفيسة. وليس هذا بعجيب ، فكذلك كانت رسالة المرأة في العصور الماضية ، وما تزال، نوراً يبدد الظلمات، وسحراً يزيح الأثقال ويحيي العزائم و الأرواح .

وان هذه الرسالة الرفيعة لتعظم في أعيننا ، وتتجلى لنا بحقيقة معناها ومغزاها ، إذا ذكرنا ان معضلتنا الأساسية في حياتنا الحاضرة هي معضلة روحية داخلية . فما المشكلة السياسية، والأزمة الاقتصادية ، لتوازيا جزءاً من هذه المعضلة الروحية ، وما كانت أي منهما لتتعقد وتستعصي لولا هذه الأزمة الداخلية التي تفسخ جسم الأمة وتضعضع قواها : لولا الحقد الذي يشتت

الصفوف ، والحسد الذي يفرّق بين القلوب ، لولا المادة وحبائلها ، والرذيلة وأفاعيها ، لولا العقول المستعبدة ، والأرواح المقيدة ، والنفوس الذليلة . وبكلمة واحدة : لولا هذا الضعف الروحي الذي هيئت المرأة بطبيعتها ومزاجها لإزالته والتغلب عليه . فما أحوجنا اذن إلى هذه النفحة العلوية تنفخها المرأة في كياننا فتحيينا ، وإلى هذا الاشراق الروحي تفيض به علينا فتنير سبيلنا وتهدينا . وما أخلق المرأة العربية أن تقوم بهذا الواجب الأسمى وتؤدي رسالتها الرفيعة.

التربية القومية

لست أعرف - بين المواضيع التي ينفسح مجالها للكتاب العرب في هذه الأيام - ما هو أعظم نفعاً وأحوج إلى الدرس والتمحيص من تلك التي تتعلق بحياتنا القومية العامة . فلقد بدأت الأمة العربية تمشي في طريق الحرية والاستقلال ، وأخذت تبني أسمى حياة قومية جديدة. فأصبح من الضروري أن ينصرف كتّابها وقادة الفكر فيها إلى معالجة القضايا العامة الناشئة عن هذه الحياة الجديدة، وأن يدرسوها على ضوء التاريخ والظروف الحاضرة ، فيسهلوا للأمة عملها، ويعجلوا نهضتها ، ويسددوا خطاها الأولى في طريقها إلى الحياة القومية الكاملة .

ولست أعرف- بين المسائل التي تعرض للأمة العربية في هذه المرحلة الأولى- مسألة أعظم خطراً من " التربية القومية " ، فإنها الأداة التي توحد نزعات الأمة ، وتصلّب عودها، وتبعث روحها، فتحفظ لها- بهذا كله- استقلالها وحريتها . من أجل ذلك ، أحببت أن أثير هذا الموضوع الخطير ، آملاً أن يأخذه قادة الفكر في البلاد العربية بالدرس والاهتمام ويوفوه حقه في هذه المرحلة الخطيرة من حياتنا القومية .

وأعني بالتربية القومية ذلك التهذيب الذي يكتسبه السواد الأعظم من أهل البلاد ، وينتج عنه شعور الفرد منهم بأنه عضو حي من جسم الأمة ، فيدفعه هذا الشعور إلى القيام بواجبه نحو أمته على الوجه الأكمل . ففي هذا التهذيب اذن عنصران لا يتم بدون أي منهما : الشعور القومي، ثم القيام بالواجب الذي يفرضه هذا الشعور.

وأسارع إلى القول إني أعني بالقومية شيئاً أعظم من السياسة وأوسع . فما السياسة إلا ناحية ضيقة من نواحيها ، ولون محدود من ألوانها ، لأن القومية تشمل الحياة بأوسع معانيها وتستهدف الأمة بجميع أحوالها ، وترمي لا إلى اكتساب حرية الأمة وتوسيع نفوذها السياسي

فحسب ، بل إلى إنماء قواها الروحية ، ورفع مستواها الاجتماعي والعقلي ، والسير بها إلى أبعد ما يكون في طريق الحياة المثلى .

ونحن إذا نظرنا في أمر هذه التربية القومية وجدنا انها تقوم بوظائف ثلاث : فهي تعد الأمة للحياة القومية، لأن الأمة التي لم تكتسب هذا النوع من التربية لا يمكنها ان تحيا حياة قومية صحيحة ، بل تبقى في اضطراب داخلي دائم تتلاعب بها قوى السياسة والأطماع الذاتية . وهي، من ناحية ثانية ، توحد الأمة : فلا تتركها ، كما هي الحال عندنا ، منقسمة إلى عناصر متباينة يفكر بعضها تفكيراً لاتينياً والبعض الآخر تفكيراً انكلوسكسونياً ، ويحيا فريق منها حياة شرقية محافظة ، والفريق الآخر حياة غربية متهورة ، ويسلك بعض جماعاتها سلوكاً دينياً ، والجماعات الأخرى سلوكاً علمانياً ، إلى غير ذلك من أسباب الانقسام ، بل تصهرها كلها في قالب واحد وتخرجها أمة موحدة النزعات ، متماسكة الأجزاء ، تقف في وجه الأحداث كتلة واحدة ، تعرف ما هي وماذا تريد . فإذا تم هذا كله ، قامت التربية القومية بوظيفتها الثالثة والعظمى ، وهي مساعدة الأمة على تأدية رسالتها إلى الإنسانية . فإن لكل أمة من الأمم رسالتها الخاصة تؤديها إلى المجتمع الإنساني عندما تكتمل عناصرها وتتوحد قواها الروحية . ولقد أدت الأمة العربية رسالتها في ما مضى من التاريخ ، ثم تفككت عراها وانحلت قواها . وأمامها الآن مجال فسيح لتأدية رسالة جديدة . لكن لن يتاح لها ذلك إلابإحياء قواها الروحية وتوجيهها إلى المثل العليا، وهذا لا يتم إلا على أساس التربية القومية الصحيحة..

ولنلاحظ أن التربية القومية تقوم للأمم مقام التربية المدرسية للأفراد : فهذه - إذا كانت سليمة صحيحة - تعد الأفراد للحياة العملية ، وتوحد النزعات المختلفة التي تختلج في صدورهم، وتدفعهم إلى تأدية رسالتهم لأمتهم أو للإنسانية جمعاء . وهكذا- كما رأينا - تفعل التربية القومية في الأمم .

ومما يظهر أهمية هذه التربية القومية انصراف الحكومات الحديثة إلى معالجتها بجميع الطرق الممكنة لتيقنها من أن الأمة لا تتكون بالحدود الجغرافية

والوسائل الاصطناعية ، بل بتأليف القلوب وصهر النفوس ، وهذا لا يتم إلا بالتربية القومية الموحدة . وكفى دليلاً على هذه النزعة عند الحكومات الحديثة الأسماء الجديدة التي أخذت تطلقها على الوزارات والدوائر المشرفة على هذه الناحية من الحياة القومية . فوزارة المعارف في فرنسا أصبحت تدعى " وزارة التربية القومية Education Nationale " بعد أن كانت " وزارة المعارف العامة، Instruction Publique ووزارة الدعاية في المانيا النازية تسمى " وزارة التثقيف القومي والدعاية " . وقس على هذين المثلين سواهما، وهو كثير.

***

وللتربية القومية شروط يجب أن تستوفيها . في مقدمتها أن تكون هذه التربية مستمدة من فلسفة قومية. فهي أجل وأعظم من أن تترك للأحوال المتقلبة والظروف الطارئة ، بل يجب أن يكون وراءها أبحاث نظرية عميقة في القومية وعواملها ، وفي الأمة وعناصرها، وفي الأمة العربية ومميزاتها ورسالتها كما تظهر من طبيعتها وتاريخها . وكلنا يعلم أن ما من حركة قومية في الغرب إلا ولها فلاسفتها ومفكروها . فالقومية الايطالية كان لها في زمن الحركة التوحيدية " مازيني " ، ولها اليوم في ظل الحكم الفاشيستي بارتو وموسوليني ، والقومية الفرنسية ترتكز على آراء تيير وجول فرّي وبارّس والكاتب الحديدي شارل موراس ، والقومية الألمانية تستمد قوتها النظرية والروحية من فخته وشبنغلر وهتلر وسواهم . وكذا قل عن الحركات القومية عند الأمم الأخرى.

أما نحن ، فقد كنا ولا نزال- إلا في القليل النادر- أكثر اهتماماً بالسياسات الآنية والحركات الوقتية منا بإنشاء فلسفة قومية يبنى على أساسها جهادنا القومي ، وتكون مستخرجة بالدرس الشامل العميق . والآن ، وقد نالت الأمة العربية قسطاً من استقلالها واستعادت بعض حريتها ، فقد أصبحت الحاجة إلى مثل هذه الفلسفة القومية أعظم والخطر من عدمها أبلغ ، لأنها عصب القومية والحجر الأساسي في بنائها. فعلى قادة الفكر في الأمة العربية أن يلاحظوا هذه الحاجة ويعمدوا إلى سدها،

فيقوموا بذلك ببعض ما تفرضه عليهم قيادتهم الفكرية وزعامتهم الروحية .

ومن شروط التربية القومية أيضاً أن تكون ، هي وأساسها الفلسفي ، مستمدين من الحياة الواقعية . فما القومية سوى توازن بين القوى المختلفة التي تتجاذب أفراد الأمة وجماعاتها : القوى الاقتصادية ، والدينية ، والجنسية ، والاقليمية . فعلى الفلسفة القومية ، والتربية المستمدة منها ، أن تأخذا هذه القوى كلها بعين الاعتبار وتحاولا موازنتها والموافقة بينها للوصول إلى الاستقرار القومي المنشود . فالتربية القومية التي تصلح في بلاد الغرب قد لا تصلح لنا ، لأن القوى الفعالة في الأمم الغربية التي أنشئت هذه التربية لتوجيهها وتوحيدها تختلف عن القوى العاملة في محيطنا ، والظروف التي خلقت الحركات القومية الغربية في جوها ليست نفس الظروف المتحكمة في حياتنا الحاضرة . فمن الضروري اذن أن تكون نظرياتنا القومية مستمدة من الحياة الخاصة التي نحياها ، لا من غيرها ، مع العلم بأنه يجب علينا كذلك أن نطلع على تطور القومية في الغرب وأساليب التربية التي تستخدمها وأن نستخرج منها ما يوافق محيطنا وظروفنا.

***

هذه هي التربية القومية ، وهذه شروطها ، فما هي الوسائل التي تتبعها للوصول إلى غايتها ؟

لقد شعر قادة الأمم بضرورة هذه التربية القومية لبناء الأمة فعمدوا إلى بثها بشتى الطرق والوسائل . وكان في مقدمة هذه الوسائل : المدرسة. وأعني بالمدرسة جميع منظمات التعليم من البستان إلى الجامعة ، لكن القسم الأهم منها - من وجهة موضوعنا الحاضر- هو التعليم الابتدائي وبعض الثانوي ، لأن أكثرية الأمة تتأثر بهما. أما التعليم الجامعي ، فهو مقصور على طبقة محدودة منها .

وليس يخاف على أحد أثر المدرسة في بناء الأمم واحيائها . فهي الأداة المنظمة الفعالة التي يتعرض لها المرء في السن التي هو فيها أشد ما يكون تأثراً

بالمؤثرات الخارجية ، فتكيف عقليته وروحيته وتوجهها إلى الغايات التي يستهدفها خالقوها ومنظموها . وقد قويت فعالية هذه الأداة وعظم خطرها في العصر الحديث خاصة ، لانتشار التعليم من جهة ، ولاتساع مداه من جهة أخرى . فبعد أن كان التعليم مقصوراً على فئة محدودة من مجموع الأمة ، أخذ ينتشر حتى شمل القسم الأعظم منها وأخذت الحكومات والشعوب تتفاخر بمعدل المتعلمين من أبنائها، وبعد أن كانت سنوه قليلة أخذت تزيد حتى امتدت على الجزء الأوفر من سني الصبا والفتوة . فإذا أضفنا إلى هذا كله تنظيم المدارس المتزايد وإخضاعها المستمر لتأثير القوة الحاكمة ، تجلت لنا أهميتها وفعاليتها كأداة ولبث التربية القومية .

تؤدي المدرسة هذه الوظيفة عن طريقين : مباشرة وغير مباشرة . كانت تمثل الأولى منها فرنسا بصورة خاصة . ثم جرت عليها في الأزمنة الأخيرة ايطاليا وروسيا والمانيا وغيرها من الدول التي تحاول بناء نظم جديدة : سياسية ، أو اقتصادية ، أو اجتماعية . وهي تقوم على تلقين الطالب تلقيناً منظماً كل ما يظهر عظمة بلاده ، وجمالها، وبطولة أبنائها ، وفضلها على أمم العالم . ففي المنهاج الإفرنسي ، والأنظمة التعليمية المنبعثة عنه ، درس خاص" instruction civique أو التعليم المدني " ، يرمي إلى تعريف الطالب بنظام مجتمعه وإدارة بلاده وواجباته نحوهما . فهو يفسح أمام المعلم مجالاً حراً فسيحاً لبث مبادئ التربية القومية بين الطلبة . على أن العمل التربوي لا يقتصر على هذا الدرس الخاص ، بل يستخدم الدروس الثقافية الأخرى. فدرس التاريخ مثلاً ميدان واسع تظهر فيه بطولة الأمة وعظمتها ، وفي درس اللغة والأدب مجال كثير للإشادة بجمال لغة البلاد ، وغزارة أدبها ، وسمو رسالتها الثقافية . حتى العلوم الطبيعية والرياضية قد تنقاد لمثل هذا التوجيه ، وذلك بشرح ما أنتجه علماء الأمة وفلاسفتها وما لهم من فضل على العلم والاختراع .

أما الطريق الثانية - الطريق غير المباشرة- فنراها متبعة في البلاد الأنكلوسكسونية كانكلترا وأميركا . إذ ان النظام التعليمي عند هاتين الأمتين ليس خاضعاً للقوة الحاكمة خضوعه عند الأمم التي ذكرناها سابقاً ، والمدارس

فيهما تتمتع بقسط غير قليل من الحرية في تكوين منهاجها وتطبيقه . وقد نتج عن ذلك اختلاف في الأساليب التي تنهجها الإدارات التعليمية المتعددة لبث التربية القومية .على أن اعتمادها على التلقين المنظم قليل بالنسبة إلى ما نجده عند الأمم الأخرى . وإنما هي تستغل لهذه الغاية أعمال الطلبة خارج أوقات الدرس (extra - curricular activities) فتدربهم فيها على المسؤولية الاجتماعية ، والحكم الذاتي ، والتعاون في العمل ، وتعرّفهم عن طريق عملية بمشاكل أمتهم ووسائل معالجتها . وهي لا تتبع في هذا السبيل نصوصاً وقواعد معينة ، بل تخلق جواً صالحاً لأن تنبت فيه بذور التربية القومية . غير أننا نلاحظ اليوم عند هاتين الأمتين وأمثالهما من الأمم ميلاً جديداً إلى طريقة التلقين المباشرة وإلى تنظيم هذا العمل التربوي ، مما يدل على أنها جميعا تنبهت لأهمية التنظيم المدرسي المركز في إحياء الروح القومية .

وعلى كل حال ، سواء أكانت الطريقة المدرسية مباشرة أم غير مباشرة ، فمصدر بعثها هو المعلم وحده ، فإن كان يشعر الشعور القومي الصحيح أمكنه أن يبثه في قلوب طلبته بشتى الطرق والوسائل ، داخل الدروس وخارجها ، لأن هذه الروح لا تنتشر إلا بالعدوى ، فمتى كانت جراثيمها حية في نفس المعلم ، انتقلت حتماً إلى نفوس الطلبة ، لأنهم مستعدون لقبولها وليس لهم مناعة ضدها . فالمسؤولية الكبرى في هذا العمل القومي تقع على المعلمين ، بل على السلطة التي تختار المعلمين . ولذا كان من أهم واجبات السلطات العربية ، في هذا الظرف الدقيق من حياتنا القومية ، أن تحسن اختيار الأشخاص الذين توكل إليهم القيام بهذا العمل الخطر، فتعتبر الروح القومية التي تختلج في صدورهم قبل النظر إلى المعلومات المحشوة بها أدمغتهم ، أو إلى قرابتهم من أرباب الحكم وذوي النفوذ . ولست أعني بالروح القومية هنا مجرد الحماسة الملتهبة والشعور المضطرم ، بل العقيدة القومية الصحيحة الجامعة بين عمق التفكير و الاندفاع النفسي .

***

هذا فيما يتعلق بالمدرسة . على أنه من البديهي أن التربية لاتقتصرعلى سن الصبا والفتوة، بل تمتد على الحياة بكاملها. وفي الحياة العملية منظمات ثقافية تكمل عمل المدرسة وتقوم لدى عامة الشعب مقامها ، منها : الصحافة. فهي من أقوى هذه المنظمات وأوسعها تأثيراً ، ذلك لأن أكثرية الأمة لا تقرأ المؤلفات الاجتماعية والأبحاث الفلسفية ، وإنما تستمد آراءها ومعتقداتها من الصحف السيارة ، حتى أصبح الناس في هذه الأيام يشعرون بحاجة إلى الجرائد أقوى من حاجتهم إلى كثير من متطلبات الحياة المادية . ومما يدلنا على أهمية الصحافة في الحياة القومية محاولة الحكومات الحديثة السيطرة عليها ، أو استمالتها على الأقل . نرى هذه المحاولة جلية في فرنسا وانكلترا، على أنها أشد ما تكون ظهوراً في روسيا والمانيا وايطاليا وتركيا ، حيث لا توجد صحافة إلا تلك التي تنطق باسم الحكومة . وهنا لا بد من القول إنه يحسن بنا في جهادنا القومي أن نعتبر خاصة بما يجري في الأمم الأخيرة ، لأنها مثلنا- تبني حياة قومية جديدة - فهي تظهر لنا صوراً مكبرة وأدلة مفصلة على ما يعترضنا من مشاكل وعلى كيفية معالجتها .

والصحافة على نوعين : منها صحافة الأخبار، وفائدتها من الوجهة القومية انها تعرض أمام المرء ما يجري في بلاده من أخبار وحوادث ، فتعرّفه بمشاكل أمته وتجعله متصلا بمجرى حياتها العامة. وأكثر الصحافة العربية من هذا النوع . لكن العمل التثقيفي القومي الأهم لا يتم إلا بالنوع الثاني من الصحافة ، وهو صحافة العقائد : تلك التي تدافع عن عقيدة قومية وتسعى لتوجيه تفكير الأمة وعملها نحو هذه العقيدة . ومن المؤسف أن هذا النوع من الصحافة يكاد يكون معدوماً في البلاد العربية. فإن خرجت جرائدنا ومجلاتنا عن وظيفتها الاخبارية لتبرز وجهة نظر فيها ، كانت وجهة النظر هذه شخصية لا مبدئية : فهي تنطق باسم هذا أو ذاك من الأشخاص ، لا باسم هذا المبدأ الواضح أو ذاك . فالتربية القومية اذن لا يكتمل بناؤها إلا عندما تتوافر الأسباب الثقافية والمادية لصحافتنا حتى ترتفع عن المستوى الذي تعيش فيه ، وتصبح صحافة مبادىء وعقائد بالمعنى الصحيح.

ومما يتمم عمل الصحافة ، ويكاد يطغى عليها في الآونة الأخيرة : الراديو . فإن هذا الاختراع الحديث قد احتل في الحياة الجديدة مكاناً رفيعاً وأحدث فيها تأثيراً بعيداً ، لما للخطابة من أثر في النفس يفوق أثر الكتابة . ونحن نرى ذلك في استخدام السلطات المختلفة للراديو لبث دعاياتها وتكوين رأي عام بين طبقات الأمة. وهذه قوة عظيمة لم تستغل في البلاد العربية بعد، فإن المحطات الموجودة لم تستخدم بالمقدار الذي يجب للغايات القومية الصحيحة .

***

ومن الوسائل الفعالة للتربية القومية : الأحزاب السياسية . وهي- كالصحافة - على نوعين: منها الشخصية، وفائدتها لا توازي ضررها ، كما نرى في معظم الأحزاب المنتشرة في البلاد العربية ، ومنها المبدئية التي تستند إلى عقيدة سياسية واضحة. والعمل المثمر من ناحية التربية القومية إنما يحصل من هذا النوع الثاني، ويقوى خاصة إذا كان الحزب لا يكتفي بضم الأفراد إليه ، بل يحاول أن يهذبهم تهذيباً قومياً صحيحاً بما يدبره من المحاضرات والمباحثات والمشاريع الاجتماعية ، كما تفعل أكثر الأحزاب في البلاد الغربية . ونحن لا نريد الآن أن نتطرق إلى البحث فيما إذا كان من الأفضل لمصلحة الأمة أن تكون كلها حزباً واحداً أو أن تبقى فيها حرية الأحزاب ، فهذا بحث طويل عسير لا يتسع له المجال . وإنما نشير في هذا المقام إلى فائدة المنظمات السياسية بوجه عام- حزباً واحداً أم أحزاباً متعددة - في إحياء التربية القومية ونشرها . وهي فائدة جليلة قد عرفتها الأمم الغربية - من دكتاتورية وديمقراطية - وأحسنت استغلالها.

ويتبع هذه الأحزاب السياسية منظمات الشبان والأحداث التي تعمد إليها الأمم الحديثة لإحياء الشعور القومي ودعمه. فقد نظمت المانيا وايطاليا وروسيا أفراد الأمة من الطفولة إلى الرجولة في أحزاب متدرجة ، وهي تعتمد على هذه الفتية لحفظ قوميتها ودعم حياتها .

تبين اذن ان هذه الأداة الفعالة في التربية القومية تكاد تكون مفقودة عندنا ، لأن أحزابنا - إلا القليل

منها- لا تتميز بالعقائد الواضحة ، بل بالاختلافات الشخصية والنزعات الفردية. وعلى شباب الأمة المفكر أن ينصرف الآن إلى تقوية الوجهة العقائدية من الأحزاب الحاضرة حتى تتغلب على كل عصبية أخرى، وأن يسعى لتنظيم مؤسسات جديدة تكون مبنية على العقائد الخالصة والمبادىء الواضحة .

لقد ذكرنا ان القومية أوسع من السياسة وأرفع شأناً ، وأن التربية القومية لا تقتصرعلى ناحية من الحياة ، بل ترمي إلى احياء قوى الأمة كلها من سياسية واقتصادية واجتماعية وأدبية. هذا العمل الإحيائي في النواحي الخارجة عن السياسة هو من شأن الجمعيات القومية ، فهي تكتل عمل الأحزاب السياسية ، وتستغل قواها ونشاطها لحل هذه المشاكل . فهناك مثلاً : الكشاف الذي سمي إلى تقوية الجسم والعقل ، وإلى تربية النشىء على الاعتماد على النفس وإلى إكسابه صفات الرجولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى : وهذه كلها مزايا قومية يجب أن تنمو وتنتشر في صفوف الأمة . وهناك جمعيات الشبان المختلفة التي تربط قلوب الشبيبة ، وتوحّد نزعاتها، وتدربها على التكاتف في العمل المشترك ، والجمعيات النسائية التي ترمي إلى الاصلاح الاجتماعي عن طريق المرأة، وجمعيات الإحسان التي تسعى إلى مداواة الفقر وإزالة البؤس، ومؤسسات التهذيب التي تعمل على محاربة الجهل ومقاومة التعصب والبغض . وهناك أيضاً جمعيات مختلفة أخرى كتلك التي تهتم بالتشجير والتحريج ، وإنعاش القرية وحفظ الآثار والعاديات ، وترقية الآداب والعلوم وسواها من نواحي الحياة القومية .

هذه المؤسسات متوافرة في البلاد العربية . لكن أكثرها ليس مطبوعاً بالطابع القومي الصحيح ، بل بالطابع الطائفي . ولم تُبن القومية الصحيحة يوماً على أساليب الانقسامات الطائفية ، إذ لا يمكن أن تتفق في وقت واحد العصبية القومية الجامعة المانعة والعصبيات الطائفية المفرقة . فعندنا من منظمات الكشاف : المسلم، واليهودي، والماروني، والأرثوذكسي ، وسواها ، ومن مؤسسات التهذيب : جمعية المعارف الدرزية ، ولجنة المدارس الأرثوذكسية ، وجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ، وما يجري مجراها ، ومن منظمات الشبان : جمعية الشبيبة

الإسلامية، وجمعية الشبان المسيحيين . وكذلك قل عن المنظمات القومية الأخرى ، إلا القليل النادر الذي لا يقاس عليه . وغني عن البيان ان قوميتنا لا تبنى وتربيتنا لا تتم ، إلا عندما تنتظم هذه الجمعيات كلها على أساس قومي واسع لا على أساس طائفي مقيّد ، فتعمل حينذاك على تربية النشء على الحياة القومية الصحيحة منذ أيامه الأولى .

***

ولا يتسع المجال في هذا المقال لتعديد جميع الوسائل المختلفة التي تعمد إليها الأمم الغربية الحاضرة لنشر التربية القومية بين ابنائها . فهذا أمر يستغرق دروساً مفصلة ، وأبحاثاً مطولة، لأن الحياة عند هذه الأمم تكاد تدور كلها على هذا المحور وتوجّه إلى هذه الغاية. على أنه لا يمكننا أن نهمل وسيلة أخيرة لها أهميتها الخاصة وتأثيرها القوي من هذا القبيل ، لكنها تختلف عن الوسائل التي ذكرنا في أنها ليست قابلة لنفس التنظيم الممكن في تلك ، ولا تخضع مثلها لتأثير السلطات والقوى الحاكمة. هذه الوسيلة هي البيت . ففي الحقل البيتي مجال فسيح للتربية القومية لا يحتاج إلى وصف أو بيان . ويكفي أن نشير إلى ما كان لهذا العامل من أثر في تكوين بعض الأمم أو في حفظها خلال العصور . فإن بولونيا ظلت زمناً طويلاً مقسمة مجزأة بين دول ثلاث تسومها الذل والاستعباد، لكنها ظلت محتفظة بقوميتها لأن الوالدين البولونيين كانا لا ينقطعان عن تذكير أبنائهما بأمتهم وقوميتهم وبتاريخهم المجيد واستقلالهم المنشود ، إلى أن جاءت الفرصة المناسبة فانبعثت القومية البولونية وعادت هذه الأمة إلى حيز الوجود . وليس ما يمنع أن يحيي المستقبل سيرة الماضي ، فتظهر هذه الأمة من جديد ، إذا ظل البيت البولوني نواة للفكرة القومية ومبعثاً للايمان الوطني . ولا نكران أيضاً أنه كان للتربية البيتية أثر بيّن في حفظ العنصر اليهودي وبعث القومية اليهودية بعد أن تفرّق اليهود في أنحاء المعمور وذاقوا ما ذاقوه من ألوان العذاب والاضطهاد . غير ان هذا النوع من التربية القومية لا يتأتى إلا بعد أن يتهذب الوالدان تهذيباً قومياً صحيحاً ، وبعد أن تثقف الأم بصفة خاصة ، لما للأم من التأثير في تنشئة الولد وتكوين روحه .

لست أدعي أني وفيت هذا الموضوع الجليل حقه من البحث والاستقراء ، فمجمال القول فيه واسع متشعب . وقد تنبهت إليه الأمم الحديثة كافة فأحلته مكاناً رفيعاً في حياتها ، نخص بالذكر منها- كما ورد سابقاً - تلك الأمم التي تبني اليوم نظماً قومية جديدة . فإن الحياة كلها عند هذه الأمم موجهة إلى تربية أفراد الأمة جميعهم ، تربية تكفل تحقيق هذه النظم القومية . وخليق بنا- ونحن في بدء عهدنا الاستقلالي - ان نوجّه اهتمامنا إلى هذه الناحية الخطرة من حياتنا كي نتمكن من الاحتفاظ بالقليل الذي حزناه من هذا الاستقلال ومن استثماره لتأمين أوسع عيشة وأكملها لأفراد الأمة جميعاً. وهذا واجب يقع على عاتق زعماء الأمة ومفكريها ، وعلى الشبان منهم خاصة لأنهم قادة الغد وبناة المستقبل . ولقد صدق العلامة الأستاذ شارل مريام . وهو من كبار الباحثين في التربية القومية وفي مقدمة الذين اعتمدتهم في هذا البحث - حينما قال : " ليس هناك عمل أجل من التربية القومية وأعظم خطراً يجابه العلماء الذين يعالجون العلاقات البشرية، أو القادة الذين يبنون أمم المستقبل ".

القومية والجنس

على هامش الدعوة إلى الفينيقية في لبنان

تطغى على لبنان اليوم موجات فكرية عنيفة تتلاطم بقوة وصخب في بحر حياته الهائج . ولا شك في أن أبلغ هذه الموجات أثراً تلك التي تثيرها الفِكر القومية المختلفة المستمدة قواها من تيارات التاريخ الموروث من جهة ، والمبادىء السياسية والاجتماعية والعقلية المتدفقة من الغرب من جهة أخرى . من هذه الفِكر القومية فكرة الفينيقية التي يدعو إليها فريق من الناس، ويعملون لبناء حاضر لبنان ومستقبله على أساسها . هذه الفكرة تصطدم بالعقيدة العربية الجامعة وبسواها من العقائد القومية فتخلق في لبنان جواً مضطرباً مبلبلاً ، وتقسم أبناءه شيعاً متفرقة وأحزاباً متنافرة . فإذا كان لبنان بحاجة إلى شيء في هذا الطور الانتقالي العصيب من حياته ، فإلى تصفية هذا الجو، والاستقرار على عقيدة قومية صحيحة تنصهر فيها عواطف أهل لبنان كافة وتتوحد آمالهم وأمانيهم .

ولست أطمع الآن في أن أفي هذا الموضوع الواسع المتشعب حقه من الدرس والاستقصاء ، إذ ان دون ذلك دروساً دقيقة في القومية وأسسها ، وفي تاريخ لبنان وشعوبه ، وفي الروابط التي تربطه بما جاوره من الأقطار، وفي المستقبل الذي يتطلع إليه : وكلها مشاكل صعبة المنال لا قبل لي بحلها - حتى ولا بمجابهتها مجابهة تامة - في بحث عام مقتضب كهذا . وإنما هي كلمة صغيرة في الأساس الذي نبني عليه غالباً عقيدتنا القومية أوجهها إلى الذين يحاولون مجابهة هذه المشاكل ومعالجتها ، ويعانون التفكير والعمل في الميدان القومي ، لعلها تكون ذات فائدة في ايضاح الأفكار وجلو العقائد والآراء.

في لبنان اليوم فريق يقول : نحن فينيقيون قد تحدرنا من ذلك الشعب الذي سكن لبنان منذ أقدم الأزمان ، وخرج منه إلى الشواطىء القريبة والبعيدة متاجراً

ومستعمراً . نعم !- يقول هؤلاء- لقد دخل لبنان بعد الفينيقيين شعوب عديدة : من آراميين ، وعرب ، وافرنج، وسواهم ، ولكنهم جميعاً - والعرب منهم - كانوا أقلية لم تُبق في البلاد أثراً يذكر، فظل العنصر الفينيقي سائداً ، وما يزال !

وبين المتحمسين للعروبة من يقول : ان الدم السائد في لبنان هو الدم العربي . فالعرب تسربوا إلى هذه البلاد في قديم الزمان ، ثم افتتحوها في القرن السابع وانتشروا فيها انتشاراً واسعاً ، فسادوا " عنصرياً " عليها، وامتص " الجنس" العربي الأجناس التي كانت قد استوطنتها قبله، وصبغ لبنان صبغاً بشرياً جديداً .

وكأني بالفريقين يعنيان بالعرب والفينيقيين عنصرين أو جنسين مختلفين يتمايزان بخصائصهما الطبيعية . وهذا يظهر بوضوح من ترديد أكثرهم : " دمنا فينيقي " ، أو " دمنا عربي " ، كأن لكل من هذين الشعبين " دماً " خاصاً ، به يتفرد ويتميز من الشعب الآخر .

فلنلق نظرة عامة على الشعوب التي نزلت لبنان منذ أقدم الأزمنة ، لنتبين لون " الدم " الذي يجري في عروق أهله ، ولنرى ما إذا كان لهذا من أهمية في تحديد قوميته .

***

يميل الثقات من الباحثين إلى القول بأن لبنان - أو ساحله على الأقل - كانت تقطنه قبل التاريخ شعوب العصور الحجرية القديمة والحديثة ، التي كانت على ما يظهر- تمتاز بطول رؤوسها. ويرجح أنه دخله فيما بعد - في أواخر العصور الحجرية الحديثة - شعب مستدير الرأس تسرب إليه من الشمال الشرقي واحتل بعض تلاله . ثم قبل التاريخ بقليل تدفقت على بلدان الهلال الخصيب ، ومن بينها لبنان ، أول موجة من الموجات الساميّة حاملة إليها عنصراً بشرياً جديداً. وتتابعت بعدئذ هذه الموجات على هذه البلدان في أدوار شبه منتظمة خلال العصور التاريخية القديمة والوسطى . وكان مهدها جميعاً - من فينيقية وسواها - الجزيرة العربية . وهذه حقيقة يجب أن نذكرها ونتدبر معناها .

أقدم الموجات الساميّة المعروفة التي تدفقت على لبنان هي تلك التي حملت إليه الشعب الفينيقي . نزل هذا الشعب الساحل وتسرب إلى ما لاصقه من الجبال ، وخرج من موطنه الضيق إلى البحار الواسعة ، فاتصل بتجارته بالبلدان المجاورة والقصية . وفي هذه الحقبة التي ساد فيها الفينيقيون لبنان دخلت هذا البلد بعض عناصر ساميّة أخرى في الغزوات المصرية ، والبابلية، والأشورية. ولكن هؤلاء الغزاة اكتفوا في الأغلب بالسيادة السياسية ، ولم يمتزجوا بالسكان امتزاجاً واسع النطاق ، كان أثرهم الجنسي ضئيلاً . ومثله في الضآلة أثر شعوب أخرى أصاب رشاشها لبنان : كالملوك الرعاة (Hyksos) ، والحثيين ، والفلسطينيين ، وسواهم من الشعوب التي مرت في لبنان أو قريباً منه في طريقها إلى الجنوب . ولئن كان أصل بعض هذه الشعوب لايزال غامضاً ، فمن المتفق عليه أنها كلها غير ساميّة .

ثم تلا هؤلاء فاتحون آخرون آريو الأصل كان لهم بعض الأثر البشري في هذه البلاد : كالفرس ، واليونان، والرومان . ولكن الشعب الآرامي ، السامي الأصل ، الذي كان قد تدفق على الداخل في موجة كبيرة واسعة قبل ذلك بمئات من السنين تغلغل في هذه الحقبة في لبنان حتى أصبح عنصراً متغلباً فيه .

وجاء دور العرب تحملهم موجة الفتح في القرن السابع. وكانوا قد تسربوا أيضاً قبل ذلك بطرق شتى : بالتجارة التي كانت تنقلهم من جزيرتهم إلى أكثر نواحي الشرق الأدنى ، وبتجندهم في جيوش اليونان والرومان الذين كانوا قد بسطوا نفوذهم على هذه البلاد ، وبالدويلات التي أسسوها وامتد سلطانها على قسم من أراضي لبنان : كالايطوريين الذين تولوا الجبل الشرقي والبقاع مع بعلبك ، وكالغساسنة الذين بلغ حكمهم إلى سفوح الجبل الشرقي أيضاً .

وليس هذا التسرب العربي إلى لبنان وإلى غيره من مناطق الهلال الخصيب غريباً ، بل الغريب أن لا يكون قد حدث . فإن الحدود بين الصحراء وبين هذه المناطق الخصبة المحيطة بها لم تغلق في يوم من الأيام ، وإنما كانت - ولا تزال- مفتوحة يمر منها العرب على الدوام بتدفق وانفجار حيناً ، وبتسرب بطيء خفي أحياناً . ولولا أن

شيئاً من هذا قد حصل، وتأثر لبنان بما تأثرت به البلدان المجاورة من العنصر العربي ، لما استطاع العرب في زمن الفتح أن يحتلوا البلاد بهذا اليسر وأن تكون وطأتهم على سكانها بهذه الخفة والرفق .

وقد حملت الفتوح معها عنصراً عربياً غير ضئيل استقر في البلاد ، ودام تسرب العرب دون انقطاع ، ونزحت إلى لبنان قبائل عربية معروفة (وكان بعضها قد بدأ يدخل حتى قبل الإسلام) : كعاملة في الجنوب ، وتيم الله بن ثعلبة في وادي التيم ، وتنوخ في الشمال، وسواها. وقد جاء في كتاب البلدان لليعقوبي " ان لبنان المجاور لصيداء كان يسكنه قوم من قريش ومن أهل اليمن ". (لامنس، المشرق، م ٥، ١٩٠٢، ص ٨٢٥) .

كذلك دخل لبنان في العهد العربي عناصر أخرى غير سامية : كالمردة الذين انحدروا من جبال آسيا الصغرى، والعجم الذين أنزلهم معاوية شواطىء الشام . ثم تلتها تلك العناصر الأخرى- من تركية ، وكردية ، وسواها- التي برزت إلى الوجود في العصور المتأخرة على عهد الدويلات المستقلة في الشام ومصر. وعقبها الافرنج الصليبيون الذين استقر فريق منهم في البلاد نحو قرنين من الزمن ، وأخيراً المماليك الأتراك والجراكسة والأتراك العثمانيون الذين لا يمكن ان يقال إنهم حكموا لبنان ستمئة سنة دون أن يتركوا فيه - وفي ساحله على الأخص- أثراً بشرياً يذكر.

هذه نظرة عجلى في العناصر التي تتالت على لبنان، لا أدعي لها تمام الإحاطة أو عمق الاستقصاء . ويحسن بنا أن نلاحظ هنا على كل حال أن هذا التاريخ البشري للبنان ينطبق على ساحله أكثر منه على جبله . فإننا لا نعلم عن سكان الجبل نفسه إلا نتفاً لا تصلح لأن تكون أساساً لتاريخ بشري صحيح له . فقد كان في أكثر العصور القديمة والمتوسطة مغطى بالأحراج لا يستقر فيه الفاتحون، ولا ينفذ إليه إلا الجماعات المتفرقة القليلة التي يصعب تقدير أثرها من الوجهة الجنسية . غير أن هذه العجالة، على ايجازها ونقصها ، تظهر لنا ثلاث حقائق رئيسية :

١- ان سكان هذا القطر- كغيره من الأقطار المجاورة- لا يمتون إلى شعب واحد، بل يتحدرون من شعوب شتى وأجناس مختلفة .

٢- ان الشعوب الغالبة عليه هي الشعوب السامية : الفينيقيون أولاً ، ثم الآراميون، ثم العرب. وهي كلها قد تدفقت عليه من الجزيرة العربية . تتلوها- بدرجة أدنى كثيراً- الشعوب الآرية : من عجم ، ويونان ، ورومان ، وافرنج ، ثم الشعوب التركية المغولية .

٣- ان العرب لم يكونوا أقلية ضئيلة ليست ذات خطر في تكوين لبنان البشري ، بل كانوا عنصراً له خطره ومقامه بين العناصر التي تؤلف سكان هذا القطر . ويستقر هذا في روعنا إذا ذكرنا الحقيقة الهامة التي أشرنا إليها فيما سبق : وهي أن الصحراء تلقي بسكانها إلى ما يحيط بها من البلدان الخصيبة دوماً دون انقطاع .

***

ولكن ، أين يؤدي بنا هذا كله ؟ ما هو "جنس " سكان لبنان اليوم ، وما لون دمهم ؟

الواقع ان تقسيم شعوب لبنان إلى عربية وفينيقية وآرامية لا يتفق والمعنى الذي يفهمه العلماء من "الجنس " اليوم . فإن الثقات من هؤلاء العلماء يميلون إلى تقسيم سكان الأرض إلى ثلاثة أقسام رئيسية : الأبيض القوقازي (Caucasian)، والمغولي (Mongoloid)، والأسود (Negroid) . ثم يقسمون الأول منها إلى أربعة أجناس : الشمالي (Nordic) ، والألبي (Alpine)، والمتوسط (Mediterranean)، والعنصر الآري من الشعوب الهندية . ويشمل الجنس الثالث شعوب حوض البحر المتوسط في القارات الثلاث : ومنها الشعوب الساميّة على الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط ، والحاميّة في شمالي افريقيا ، وقسم من سكان اليونان وايطاليا. وهذه الأقسام والأجناس والشعوب تتمايز فيما بينها بخصائص طبيعية معينة كطول الرأس أو استدارته ، أو لون البشرة والعينين، أو هيئة شعر الرأس ولونه أو تركيب الدم ، أو سواها مما لا يظهر بهذا الوضوح . ذلك ان "الجنس " (Race) يقوم- بمعناه الصحيح- على هذه الخصائص البيولوجية الصرف،

دون سواها من الاعتبارات اللغوية أو الجغرافية أو الاجتماعية .

وعلى هذا تكون الشعوب التي دخلت لبنان وكوّنت سكانه الحاليين تنتمي - بالدرجة الأولى- إلى جنس البحر المتوسط من القسم القوقازي ، ثم إلى الجنس الإلبي وقليلاً إلى الجنس الشمالي من هذا القسم أيضاً ، وإلى القسم المغولي بدرجة أدنى كثيراً . وعلى هذا أيضاً ، لا يكون ثمة فرق بين " الدم " العربي و" الدم " الفينيقي ، لأن الدم مرتبط بالجنس ، وليس هناك ما يفرق " جنسياً " بين العرب والفينيقيين وإنما ينتميان كلاهما إلى فرع واحد من جنس واحد .

زد إلى ذلك أن كلا الفينيقيين والعرب لم يحافظوا بعد أن نزلوا هذه البلاد على النقاوة الجنسية النسبية التي كانت لهم عند خروجهم من الجزيرة العربية ، بل امتزجوا بالسكان السابقين امتزاجا عظيماً اختلط به دمهم وجنسهم ، ولم يبق ممكناً معه أن نتحدث عنهم كوحدات جنسية، بل كوحدات سياسية ، اجتماعية ، أو ثقافية فحسب .

***

حتى لو كان العرب والفينيقيون ينتمون إلى فرعين مختلفين من جنس واحد أو إلى جنسين متباينين، وحتى لو كانوا حافظوا على نقاوتهم الجنسية والدموية ، فهل يمنعهم ذلك من أن يندمجوا في قومية واحدة جامعة ؟ لا ! فما كانت القومية يوماً لتبنى على حجم جمجمة الرأس ، أو لون البشرة ، أو تركيب الشعر، بل على أسس اجتماعية وعقلية وروحية أقوى أثراً في تكوين الأمم . نظرة واحدة إلى فرنسا ، تلك الأمة التي يضرب بها المثل في التماسك القومي والوحدة الوطنية ، نرى ان سكانها يتألفون من أجناس ثلاثة من القسم القوقازي : شماليون في الشمال، وألبيون في الوسط ، ومتوسطون في الجنوب . بين هذه الأجناس الثلاثة من الفروق البشرية ما لا نجده بين العرب والفينيقيين المتحدرين كليهما من فرع واحد من جنس واحد .

فلنهتك إذاً حجاب " الجنس" الذي يمنع الضياء عن تفكيرنا القومي ، ولنطرد شبح "الدم " الذي يسيطر على أبحاثنا ومجادلاتنا ، ولننظر إلى ما أهم منهما وأفعل في تكوين القومية الصحيحة .

لننظر إلى اللغة ، والثقافة، والعادات، والذكريات التاريخية ، والمصلحة الحاضرة والمستقبلة . ليس بإمكاني، في هذا المجال الضيق ، ان أحيط بهذه الأسس التي تبنى عليها القومية ، إذ ان كلا منها يحتاج إلى مقال خاص يشبعه بحثاً وتحليلاً . ولكنني لا أستطيع أن أختم هذه الكلمة دون ملاحظة واحدة أبديها عن الاتجاه العقلي الذي ننظر به إلى هذه الأسس عند بناء عقيدتنا القومية.

أكثر ما نتجه عند تفكيرنا في المسائل القومية إلى الماضي ، لا إلى المستقبل . نتجادل في أصلنا ، وجنسنا ، وما كان عليه أجدادنا ، وما حدث بين أقطارنا من العلاقات التاريخية - إلى غير هذا مما نفكر ونقول ونحن ملتفتون إلى الوراء ، بدلاً من أن نكون متطلعين إلى الأمام . وليس لي- وأنا من طلبة التاريخ مهنة - ان أقلل من أهمية التاريخ ، أو أن أضع من قيمة من يستمد من الماضي عونا على فهم الحاضر، ولكنني أخشى أن هذه العقلية التاريخية قد تغلبت علينا، واحتلت من تفكيرنا مكاناً أرفع مما تستحق ، وأنه يجدر بنا أن نتوجه - أكثر مما فعلنا ونفعل- إلى المستقبل الآتي ، لنستمد منه صورة الحياة التي نريد أن نحياها . عندها تصبح لهذه الصورة قوة تفرض نفسها علينا ، وهيئة تكيّف تفكيرنا. عندها لا يكتفي اللبناني بأن يسأل نفسه: "ما هي اللغة التي ورثتها عن أجدادي : الفينيقية أم العربية؟ " بل يزيد بإلحاح : "ما هي اللغة التي أريد ويهمني أن أتكلم بها واتخذها أداة لحضارتي الآن وفي المستقبل ؟ " ولا تضطرب نفسه بهذه المسألة : " ما هي ثقافتي، أفينيقية أم عربية ؟ " فحسب ، بل يتلمس طريقه ليجيب عن سؤال آخر: " أي اتجاه أريد أن اتجه بثقافتي : الاتجاه الفينيقي أم العربي؟ " وأخيراً- وهنا بيت القصيد- "أين أجد مصلحتي الكبرى، وأحقق غايتي القصوى : في خلق كيان لبناني مستقل عن الأقطار

العربية الأخرى ، أم في الارتباط بتلك الأقطار ارتباط المشترك في جهاد واحد وحياة واحدة ؟ "

ليس يخامرني شك في أنه لو تخلص أصحاب العقائد القومية من كابوس "الدم " و"الجنس"، وتطلعوا بنظرهم إلى المستقبل بقدر ما يلتفتون الآن إلى الماضي ، ولو ترفعوا عن المهاترة والجدل العقيم الذي غالباً ما يفسد أبحاثهم ، ولو بذلوا للتفكير القومي ما يتطلبه من تجرد واخلاص- لو توافرت هذه الشروط - لما كان بينهم ما نجد اليوم من تصادم وتنازع وما يصحب ذلك من صخب وضجيج ، ولوجد أصحاب الفكرة الفينيقية أنه ليس هناك ما يمنع- بل هناك كل ما يفرض- أن يذيبوا فكرتهم في الفكرة العربية الجامعة : هذه الفكرة التي تقوم لا على "الجنس"، بل على الوحدة فى اللغة ، والثقافة ، والجهاد الماضي ، والمصلحة الحاضرة ، والآمال المشرقة إلى الامام . وهذا شأن كل فكرة قومية صحيحة.

العمل القومي والمشاريع الاجتماعية

مشروع انعاش القرى

في البلاد العربية كثير من المشاريع الاجتماعية يقوم بها الشباب وغير الشباب ، ويقصدون بها إلى معالجة هذه أو تلك من مشاكل الحياة العامة : من الاحسان إلى الفقير والمحتاج ، إلى تخفيف ألم المريض ، إلى ايواء اليتيم ، إلى تعليم الأمي ، إلى سواها من الأعمال الاجتماعية التي تفيض فيها عواطف الرحمة والتضحية من صدور العاملين من أبناء الأمة . ومن الخير ان تمتد هذه المشاريع وتعم ، وأن تتعدد النواحي التي تنصرف إليها . ومن الخير كذلك أن تزداد العواطف الروحية التي تدفع إليها غزارة وغنى ونقاوة ، وان تتعمق منابعها في قلوب أبناء الأمة وتتوسع . ففي هذا كله ما يسهل للأمة سبل نهضتها ، ويرفع مستواها الاجتماعي والعقلي .

على أنه من الخير، مع هذا وذاك ، أن يعمد القائمون بكل مشروع من هذه المشاريع إلى التساؤل- بجد واخلاص وتهيّب - عن مغزى العمل الذي يضطلعون بأعبائه ، وأن يحاولوا دائماً ايضاح الغاية التي يقصدون به إليها ، والمقام الذي يجب أن يكون له في حياتنا الحاضرة . فكل عمل يقوم به المرء لا يكتسب قيمته ومعناه ، إلا إذا أدخله صاحبه في دائرة عقيدته وفلسفته في الحياة ، وربط غايته بالغاية القصوى التي إليها يسعى ومن أجلها يعيش .

ولست أدري غير الغاية القومية غاية يصح أن نتخذها، في هذا الطور من حياتنا ، هدفاً نوجه إليه جهودنا الفردية والاجتماعية . فكل مشروع اجتماعي يجب أن يعالج ناحية من الحياة القومية ، وأن يرتبط في غايته ووسائله بالعمل القومي الذي يرمي إلى النهوض بالأمة إلى أرفع الدرجات وأقربها إلى الحياة المثلى . فكأني بهذه المشاريع الاجتماعية المختلفة جداول تنبع من مراكز متعددة ، فتمر في طريقها بنواح من الحياة

العامة تبعث فيها القوة والنشاط ، ولكنها تظل متصلة فيما بينها ، ولا تزال تترافد وتتقارب حتى تتحد أخيراً في المجرى الرئيسي الذي يجمعها، والذي من أجله وجدت وإليه تعود .

وقد كان لي حظ العمل تحت لواء مشروع انعاش القرى الذي يسعى إلى اصلاح الحياة الريفية في البلاد العربية ، فنظرت إلى هذا المشروع كمشروع قومي في جوهره وروحه، وأوضحت لنفسي العلاقة التي يجب أن تربطه بالفكرة القومية وسبل تحقيقها . ولست أدري ما إذا كان جميع العاملين في هذا وأمثاله من المشاريع يقرّونني على ذلك ، ولكنني أدري ، وأشعر شعور اقتناع ويقين ، ان هذه هي الروح التي يجب أن تشيع فيه ، بل في كل مشروع اجتماعي عربي ، وانها هي وحدها كفيلة بأن تبعث في هذه المشاريع قوة الحياة ونضرتها ، وتؤمن لها النجاح الحق والنفع الجزيل .

***

إن غاية النهضة القومية هي رفع مستوى الحياة العربية بجميع نواحيها . فهي لا تقتصر على نيل الحرية الخارجية والاستقلال السياسي ، بل ترمي إلى أبعد من هذا بكثير : إلى تحرير أفراد الأمة من القيود الداخلية ، إلى توفير أكبر قسط من السعادة والهناء لهم جميعاً ، إلى كمال حياتهم الجسدية والعقلية والروحية . فكل عمل يتجه نحو هذه الغاية الشاملة ، ويحاول تحقيقها في ناحية من نواحي الحياة ، أو عند فريق من أفراد الأمة ، هو عمل قومي في هدفه ومغزاه . وهنيئاً للأمة التي تكون جميع أعمالها منظمة وموجهة إلى غايتها القومية الوحيدة : فلا يكون بين جهودها تضارب أو تنافر، ولا في سريان حياتها ضياع أو خسران .

ومن هذا يتبين أن مشروع انعاش القرى الذي أخذ على عاتقه خدمة الفلاح العربي وإنهاضه إلى مستوى الحياة الغنية الكاملة ، لا ينفصل في غايته عن الفكرة القومية ، بل هو منها في الصميم : بها يقوى ومن أجلها يعيش ، وأنه ينتظم مع سواه من المشاريع الاجتماعية والثقافية في هذه الرابطة القومية التي توحدها جميعا وتوفق بين جهودها ومراميها .

وليس يكفي أن نقول إن الأعمال التي يقوم بها مشروع انعاش القرى وأمثاله أعمال " إنسانية " تدعو إليها عاطفة الشفقة والحنان ، ويحدوها حدب الغني على الفقير، ورأفة العالم بالجاهل ، وعطف القوي على الضعيف . فلقد تبددت هذه العواطف " الإنسانية " في عصر القوميات المتطاحنة الذي نعيش فيه ، وغدا واجباً علينا أن نصهر جميع عواطفنا ومساعينا في بوتقة الجهاد القومي الموحد . فليس يعطف أحدنا على الفلاح ، لأنه فلاح فحسب ، بل لأنه فلاح عربي تربطنا به رابطة الوطن ، ويدفعنا للعمل من أجله الواجب القومي الذي يجعل الفرد منا مسؤولاً عن أمته أولاً ، ويضع مصلحة الوطن قبل أية مصلحة أخرى .

***

هذا من حيث الغاية . اما الوسائل التي يتبعها المشروع ، فهي، كغايته ، مستوحاة من الفكرة القومية المثلى ومجارية لنهضة الأمة الصحيحة ، ذلك ان كل نهضة قومية لا يشترك بها الشعب - أو قل لا تقوم على الشعب - لا يمكن أن تدوم . ولقد كنا ولا نزال في هذا الشرق العربي ننتظر كل اصلاح وتقدم من جانب الحكومة غير شاعرين بأية مسؤولية تجاه وطننا وأمتنا ، ونلقي على السلطات القائمة تبعة كل تأخر أو تقصير دون أن نبذل أي جهد فعّال لمداواة العلة واصلاح الحال . ولو أننا درسنا النهضات القومية عند الأمم الحية لوجدنا انها لا تتم على الوجه الأكمل إلا عندما يتلاقى العمل الحكومي المتجه من الأعلى إلى الأدنى والجهود الشعبية المنبثقة من صميم الأمة والناهضة بها إلى مراقي الحضارة والعمران . من أجل هذا ، وجب أن نرحب اليوم بمشروع انعاش القرى وأمثاله من المشاريع الاحيائية التي يشارك فيها الشعب الحكومة في مسؤولية العمل وواجب الاصلاح . فإن الفرد الذي يخرج منا إلى القرية ليقوم بواجبه في انهاض مواطنه الفلاح ، يحقق بعمله هذا وجهاً من وجوه النهضة القومية، ويكشف عن معنى من معانيها السامية ، إذ يسير بالأمة إلى تلك الحالة المثلى التي يتعاون فيها أبناء الأمة جميعاً على رفع بلادهم وتحرير أجسادهم وعقولهم ونفوسهم .

ويعظم خطر هذه النهضة الشعبية عندما يكون بادئها وباعثها الشباب العربي المثقف . فلقد كان علمنا ، ولا

يزال إلى حد بعيد ، عبئاً ثقيلاً نحمله على ظهورنا . ولم يصب أمتنا منه إلا النفع اليسير، حتى كاد يصح فينا معنى الحديث الشريف : " أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه " . فإذا أقبل اليوم الشباب المتعلم على المشاريع الاصلاحية كمشروع انعاش القرى ، ودخل الميدان الذي نفسحه له للمساهمة في النهضة القومية ، أصبح لعلمه معنى وقوة وحياة ، وشعّت ثقافته في الشعب فاستفادت منها الأمة واغتنت البلاد . وليس عبثاً اذن أن اتخذ مشروع انعاش القرى شعاره : " من الشباب المثقف إلى الفلاح ". ففي هذا الشعار معاني المسؤولية التي أخذ يشعر بها الشباب ، والروح العملية المخلصة التي يجب أن تتجلى في ثقافته، واستعداده للانصهار التام في بوتقة الأمة ورابطتها العظمى . فيه، على الجملة ، معنى من أبرز معاني النهضة القومية : هو شياعها من أفراد الشعب- والمتعلمين المثقفين منهم خاصة- وفيضانها من صميم قلوبهم وأرواحهم .

ثم هناك وجه آخر للمشررع له خطورته الخاصة من الناحية القومية ، ذلك هو توحيده بين الشباب العربي على اختلاف طوائفه وعقائده ونزعاته الخاصة أو العامة. فإن المثل الأعلى الذي يتوجه هذا المشروع إليه يؤلف بين جميع العاملين فيه ويجعلهم قلباً واحداً ونفساً واحدة في الجهاد في سبيله .

ونحن الذين أثقل الدهر عاتقنا بشتى الانقسامات الطائفية ، والعائلية ، والعنصرية ، وسواها من العصبيات التي تقف عقبات كؤود فى وجه انتظامنا القومي، نحن الذين قسمتنا أنواع الحزبيات الهدامة شيعاً متنازعة وفرقاً متناحرة ، خليقون بأن نستمد من مشروع انعاش القرى وأمثاله معنى العمل القومي الموحد الذي تذوب فيه كل شهوة خاصة وتضمحل كل نزعة حزبية. وما أن تاريخ هذا المشروع ليشهد بأجلى برهان على التآخي الذي يربط جميع العاملين فيه ، وعلى الارتباط الوثيق الذي يؤلف بين قلوبهم ويجمع جهودهم ومساعيهم .

هذه هي بعض النواحي القومية لمشروع انعاش القرى . ولست أنكر ان عملاً يضع أمامه هذه الغاية السامية الخالصة ليتطلب جهوداً عظمى وصفات روحية خاصة ليرتفع إلى المستوى الذي يصبو إليه ويؤدي الرسالة التي

ينشدها. من هنا وجب على القائمين بهذا المشروع أن يظلوا أبداً متطلعين إلى غايته القومية السامية ، وأن ينفخوا في عملهم كل ما في نفوسهم من همة وتضحية واخلاص، حتى لا يمسه قلب من هذه القلوب اليافعة التي تقبل على التطوع فيه الا ويلتهب بروحه ويتطهر بإكسيره ، ويستمد منه صفات النشاط والتجرد والاخلاص التي يتطلبها العمل القومي المنتج . فإذا لم يكن لمشروع انعاش القرى من فائدة الا ان ينمي هذه الصفات في قلوب العاملين فيه ويلقي في نفوسهم معنى الخدمة الصحيحة ، لكفى ذلك لينهض به إلى مرتبته الرفيعة في سلم جهادنا ، ويحله المحل الذي يستحق في حياتنا القومية .

ان العرب لم يعرفوا في حياتهم دوراً كانوا فيه أحوج إلى الجهاد منهم في هذه الأيام . فإن الأعمال التي تدعو إليها النهضة القومية أعمال متشعبة النواحي واسعة النطاق تحتم علينا أن نبذل كل نسمة من روحنا وكل خفقة من قلبنا للقيام بها . وانه لمن أعظم الإجرام تجاه أمتنا في هذا الدور العصيب أن تبقى قوانا كامنة في الصدور أو أن تهدر على التافه من الأعمال . وها ان مشروع انعاش القرى يضرب على صدورنا الفتية فيفجر منها القوى ليمد بها حياة الأمة العربية الجديدة . فإذا جاهدنا تحت لوائه - أو لواء غيره من المشاريع الاجتماعية التي تعمل للخدمة العامة الخالصة - قمنا ببعض ما يفرضه علينا الواجب القومي ، ولقينا ما يبعثه هذا الجهاد في النفس من الرضى والطمأنينة والسلام .

القومية العربية والدين

بمناسبة ذكرى مولد النبي العربي الكريم

لست أقصد من كلمتي هذه أن استقصي البحث في ناحية من سيرة النبي العربي الكريم، أو أن أعرض عرضاً مفصلاً جانباً من التعاليم السامية التي أنزلت عليه . وإنما هي لفظة من ألفاظ الحياة تبعثها من نفسي ذكريات الماضي ، وأحداث الحاضر، وآمال المستقبل . هي فكرة وعاطفة توحيهما إلي ذكرى المولد المجيدة وما تحمله من رسالة روحية لأبناء الأمة العربية في هذا الظرف الدقيق من حياتهم .

لقد كثر في الآونة الأخيرة اللغط والكلام في العلاقة بين القومية والدين . ولا عجب في ذلك. فالدين من أهم القوى التي ورثناها عن الماضي ، والتي تضافرت عوامل مختلفة على تمكينها في حياتنا ، حتى طبعت أكثر مظاهر هذه الحياة بطابعها الخاص ، وقد دام تأثيرها هذا قروناً مديدة ، حتى قامت في الأيام الحديثة- وعقب احتكاكنا بالغرب- عوامل جديدة تعمل على إضعافه ، أو على حصره في ناحية خاصة من حياتنا الفردية والاجتماعية . وفي مقدمة هذه العوامل الجديدة الروح القومية التي انبعثت في قلوب العرب في السنين الأخيرة ، فنهضت بهم إلى طلب نوع من الحياة جديد يضمن لهم الحرية والسعادة والعمران . هذه الروح القومية تزداد كل يوم تأثيراً ، وتكتسب قوة وتماسكاً . فلا غرو في أن يحدث بينها وبين الدين تجاذب وتباعد، وتواصل وتقاطع ، فيبادل أحدهما الآخر التأثير أحياناً ، ويصارعه أحياناً أخرى صراعاً يهز الحياة العربية من جذورها . ولا غرو كذلك في أن نقف اليوم من هاتين القوتين الجبارتين مواقف متباينة ، لاضطراب معناهما في نفوسنا أولاً ، ولما ما بينهما من احتكاك وتصادم ثانياً .

فمنا من يربط قوميته بدين خاص من الأديان السماوية فيطغى في نفسه الشعور الطائفي على الفكرة

القومية ، ومنا من يجعل القومية والدين متناقضين أصلاً فيدعو إلى محاربة الدين وأهله لبناء صرح القومية على أنقاضهما ، وبين هذا وذاك ألوان من التفكير وضروب من الأهواء لا تدخل تحت عد أو حصر . كل ذلك راجع إلى قلة تمييزنا بين الروح الدينية والعصبية الطائفية . فالقومية الحقيقية لا يمكنها في مجمل الأحوال أن تناقض الدين الصحيح ، إذ ليست ، في جوهرها ، سوى حركة روحية ترمي إلى بعث قوى الأمة الداخلية ، وتحقيق قابلياتها العقلية والنفسية ، لكي تقدم الأمة قسطها من تمدن العالم وحضارته . فلا بد للقومية اذن- وهي حركة روحية- من أن تلاقي الدين وأن تستمد منه القوة والحياة ، والرفعة والسمو . كذلك هي القومية العربية في وجهها الصحيح : لا تعارض ديناً من الأديان ولا تنافيه ، بل تقبل على الأديان جميعاً لترتشف من منابعها الفياضة كؤوس الشفاء والخلوص ، والقوة والخلود . وإذا عارضت القومية شيئاً فليس هو الروحية الدينية ، وإنما هو العصبية الهدامة التي تجعل الرابطة الطائفية أقوى من الرابطة القومية ، وتأبى أن تذيب نفسها في بوتقة الوطن الجامعة ، بل كثيراً ما تستغل الشعور الديني البريء في سبيل أهوائها الخاصة وأطماعها الحزبية . تلك هي علة البلاد المستعصية، وأصحابها هم أعداء القومية العربية وهادمو وحدتها . أما الدين الصحيح ، الذي يرمي إلى تفتيح قوى الروح ، فهو ينبع والقومية من معين واحد ، ويتجهان آخر الأمر إلى غاية واحدة . ولهذا يترتب على القوميين العرب أن يعودوا إلى مصادر دينهم ، فيستمدوا منها السمو النفسي والمتانة الروحية ، وأن يستلهموا- في ما يستلهمون من معالم الدين- سيّر أنبيائهم جميعاً ، ، ويغنوا نفوسهم بما يفيض عنها من قوة وصفاء .

كذلك يجدر بهم أن يربطوا ما يستمدون من هذه المعاني الروحية بالفكرة القومية التي يعيشون لها ويقفون نفوسهم على تحقيقها . فليس أجدى لنا اذن ، ونحن نكرم ذكرى المولد النبوي الشريف ، من أن نلتفت إلى الماضي ، محاولين استخراج مغزى هذه الذكرى لحياتنا الحاضرة، فنتساءل : ما علاقة النبي محمد (ص) بالقومية العربية ، وما رسالته إليها ؟

النبي محمد (ص) هو، أولاً ، نبي الإسلام ، عليه أنزل هذا الدين الكريم ، وبواسطته انتشر في مشارق الأرض ومغاربها ، وقد بلغ أثر هذا الدين كل ناحية من نواحي ثقافتنا العربية ، فلسنا نستطيع اليوم أن نفهم تراثنا العربي القديم ، سواء أفي الفلسفة أو العلم أو الفن ، إلا بعد درس عميق لنصوص الدين الإسلامي وأحكامه، وتفهم صحيح لروحه ونظامه . وهذا التراث العربي قسم من ثقافتنا الحاضرة ، بل هو أساسها الذي تقوم عليه . وباطل ما ينادي به البعض من أن نرمي بهذا التراث القديم جانباً ونقبل على الثقافة الغربية الجديدة ، فالتراث العربي جزء منا- شئنا أم أبينا - وهو فوق ذلك ميزتنا التي بها نتفرد بين الأمم ، وقد أوتي من الخصب والقوة والجمال ما يدفعنا إلى الحرص عليه ومفاخرة الناس كلهم به . ولهذا وجب على كل عربي ، من أي طائفة أو نحلة ، يهتم بثقافته الماضية وببعثها الجديد- وهذا الاهتمام هو في طليعة الواجبات التي تفرضها عليه قوميته - أن يقدم على درس الإسلام وتفهم حقيقته ، ويقدس ذكرى النبي العظيم الذي أنزل الإسلام عليه .

والنبي محمد (ص) هو، من ناحية ثانية ، موحد العرب وجامع شملهم . بُعث إليهم وهم اشد مايكونون تفرقة وخلافاً : يتحاسدون، ويتناحرون، ويحارب بعضهم بعضا ، لا رابطة قوية تجمعهم ، ولا شعار يوحدهم ويوفق بين قلوبهم. فنفخ فيهم روحه المُحيية ، فإذا هذه القبائل المتنافرة قد تآلفت ، وإذا هذه الجموع المتباعدة قد تقاربت ، وإذا الجميع كتلة واحدة قد صهرت في بوتقة الإيمان ، ففاضت على العالم تبعث فيه القوة والنشاط ، وتنشر عليه الحضارة والعمران. ولقد يقول البعض ان الرابطة الدينية كانت في ذلك الوقت طاغية على الرابطة القومية ، وان الإسلام كان أقوى من العربية . والجواب أن شيئاً غير هذا لم يكن ممكناً في القرون الوسطى: سيان في ذلك الشرق الإسلامي والغرب المسيحي . ونحن نعلم أن القومية بمعناها الصحيح إنما هي وليدة العصر الحديث وما تمخض به من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية . ولكن ، بالرغم من هذا، نجد شعوراً عربياً قوياً حتى في العهد الأول حين كانت العاطفة الدينية الإسلامية لا تزال في أشد غليانها : فلقد عامل المسلمون نصارى تغلب

وسواهم من العرب بغير ما عاملوا به النصارى من غير العرب ، واشتركت بعض القبائل النصرانية في الفتوح الأولى وحاربت والمسلمين جنباً إلى جنب . ثم قوي هذا الشعور العربي بدخول الاعاجم وتفشي الشعوبية ، واشتد تكتل العرب لصد هجمات الفرس والترك وسواهم من الشعوب. نعم ! ان هذه المظاهر للرابطة القومية بين العرب ضئيلة إذا قيست بالشعور القومي الذي طغى على الأمم في العصر الحديث. ولكننا إذا راعينا ظروف الحياة الفكرية في القرون الوسطى ، عندما كانت العاطفة الدينية ساطية على كل شيء ، وجدنا في هذه المظاهر بذوراً صالحة للحياة القومية العربية . وما زالت هذه البذور تنمو- ببطء وضعف - خلال العصور إلى ان استفاقت هذه البلاد على نور العصر الحديث ، فإذا الرابطة القومية فوق كل رابطة أخرى ، وإذا هذه الرابطة تفرض على العرب أن يكونوا كلهم سواء على اختلاف نحلهم ومللهم . ويلتفت هؤلاء العرب اليوم إلى الماضي فيجدون أن أصل وحدتهم وبذرة ائتلافهم من غرس الزعيم العربي محمد بن عبد الله .

والنبي محمد هو، من ناحية ثالثة ، مثال لرجل العقيدة . خرج في مكة وظل زمناً طويلاً لا كرامة له فيها، يتحمل ضروب الذل والأذى في سبيل معتقده ، وتسخر جميع القوى لإرجاعه عن مبدأه ، ولكنه ظل صامداً في موقفه ، قوياً في ايمانه ، هازئاً من الوعد والوعيد ، ثابتاً على قوله لعمه أبي طالب : " والله ! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته " ، إلى أن نصره الله على أعدائه وأظهره على الناس جميعاً . هذا الإيمان المتوقد القوي هو أساس شخصية النبي العظيم ، وهو الذي نفخ في صدور الصحابة فحولهم من أشخاص بسطاء ضيقي الأفق محدودي القوى إلى قادة وزعماء دكوا عروش الأمم المتجبرة ووضعوا أسس تمدن جديد .

ونحن اليوم ، وقد عصفت بنا الأهواء الشخصية والمنازعات الحزبية ، وقد رفعنا المادة والجاه إلى السماك الأعلى ووطئنا قوى الروح بأقدامنا ، لأحوج ما نكون في جهادنا القومي إلى زعماء يقتبسون من شخصية النبي العربي قوة العقيدة وعزم الإيمان ، فيخرجون

للنضال في سبيل مبادئهم القومية بجرأة وإقدام ، صابرين على الأذى ساخرين من العقبات ، وينفخون في صدور من يحيطون بهم من أبناء الأمة العربية روح التضحية والاخلاص ، ويدفعون بهم على الطريق السوي إلى الحياة الجديدة .

هذه هي الرسالة الروحية التي تحملها ذكرى مولد النبي العربي إلى حياتنا القومية الحاضرة . ومن أجلها وجب على القوميين العرب ، على تباين نزعاتهم واختلاف مللهم ونحلهم، أن يكرموا ذكرى محمد بن عبد الله : نبي الإسلام ، وموحّد العرب، ورجل المبدأ والعقيدة .

التراث الثقافي العربي

١- حفظه

تحاول الأمة العربية اليوم أن تبني لها كياناً مستقلاً، وتشق لنفسها طريقاً سوية بين الأمم. ومن الواضح الذي لا يحتاج إلى جدل أو برهان أنه لا غنى لها في هذا السبيل من أن تلتفت إلى نفسها ، وتعنى بروحها، وتحيي كيانها الداخلي : لأن كل استقلال خارجي لا يقوم على الأسس الروحية الثابتة لا يكتب له البقاء ، وكل وحدة سياسية أو اجتماعية تكون عرضاً زائلاً إذا لم تدعمها وحدة في العقول والقلوب والنفوس .

ومن الواضح أيضاً أن العامل الأول في خلق هذه الروح الداخلية هو الثقافة الموحدة الرشيدة ، وان هذه الثقافة لا تكون صحيحة كاملة ولا تقوم بمهمتها إلا إذا أبرزت مواهب الأمة العربية الخاصة ومزاياها التي تفرقها عن غيرها من الأمم . ولا يتم لها هذا إلا إذا كانت تستمد من وحي الماضي وتنظرإلى نفسها كجزء متمم لتطور الأمة العقلي ، لأن الحياة مجرى واحد لا ينقطع، وسلسلة متصلة الحلقات، فكل فصل بين أجزائها، وكل بتر لصلاتها، يأتي منافيا لجوهرها، مخالفاً لطبيعة العمران والتاريخ . من أجل هذا كله ، وجب على الأمة العربية في هذا الظرف الدقيق من حياتها أن تلتفت إلى ثقافتها القديمة فتحييها ، وإلى كنوزها الدفينة فتكشف عنها وتستوحيها ، وأن تبعث روحها الراقدة في الماضي لتعيد إليها رونقها وجلالها وتنشىء حولها كيان الغد وحياة المستقبل .

والحق أننا إذا ألقينا نظرة علي الثقافة العربية القديمة وجدناها تفيض علماً وأدباً وفلسفة وفناً ، وألفينا ثروة عقلية روحية لا يستغني عنها من كان مثلنا في الفقر النفسي والعوز الفكري، ولكن أجيال الجهل الماضية قد حفرت بيننا وبين هذه الثروة هوة سحيقة ومزقت الصلات التي تربطنا بها حتى غدونا اليوم

بعيدين عنها محرومين من بركاتها . وليست هذه أول دعوة تصدر لحفظ الثقافة العربية واحيائها ، بل قد سبقتها دعوات وصرخات خرجت من جوانب الوطن العربي وتجاوبت أصداؤها في سمائه ، فكان لها بعض الأثر في ما نشر من مؤلفات وما وضع من أبحاث في السنوات الأخيرة . ولكن الحاجة لا تزال ماسة ، والمسألة ما فتئت على ما كانت عليه من الخطورة . لذلك وجب أن يقوم بين آن وآخر من ينبه إلى أهميتها ويدعو إلى معالجتها.

وموضع الخطر في الأمر أن هذا التراث الثقافي الذي خلفه لنا السلف لا يزال قسم كبير منه منتشراً في المكاتب الخاصة أو بين أيدي من لا يقدرونه قدره أو يدركون قيمته . فمع أن المئات والألوف من المؤلفات القديمة قد وصلت إلى المكاتب والمتاحف العامة حيث ستبقى محفوظة ومحاطة بضروب السهر والعناية ، فإن الباحث في أية ناحية من نواحي تاريخنا العربي ليطلع عليه كل يوم بما يذكره بأن عدداً وفيراً من المصادر النفيسة لا تزال ضائعة لم يتوفق الباحثون بعد إلى اكتشافها : فمنها من لا نعرفها إلا بأسمائها ، ومنها ما لا نعرف منها حتى الأسماء . وكل من يطلع على المجموعات التي تتضمن أسماء المؤلفين والمؤلفات في دور من أدوار التاريخ العربي : كـ الفهرست لابن النديم ، أو تاريخ الحكماء للقفطي ، أو كشف الظنون لحاجي خليفة - أو من يراجع كتاباً كـ مروج الذهب للمسعودي يذكر فيه واضعه المصادر التاريخية التي اعتمدها أو وقف عليها- يتيقن من أن ما بين أيدينا الآن من المؤلفات العربية ليس سوى جزء يسير مما وضعه الآباء والجدود ، وان الكثرة الباقية قد ضاع منها البعض ولايزال البعض الآخر مبعثراً في زوايا الوطن العربي يأكله العث ويتسرب إليه الفساد . كل هذا في وقت نرى الأمم المتمدنة أحرص ما تكون على تاريخها الماضي وثقافتها الغابرة . فإن نظرة واحدة إلى ما تبذله هذه الأمم من الجهود المادية والأدبية لحفظ تراثها بما تبني من متاحف ومكاتب وما تنشىء من جمعيات ومؤسسات علمية لكافية لتبعث في من يتحسس بالحس الثقافي الخالص والقومي الصحيح أعظم الهمة والنشاط للعمل على ابقاء التراث العربي القديم وصيانته مما يحوط به من أنواع العبث والفساد وما يتهدده من التشتت والضياع . بل ان الناظر إلى الأمم الغربية ليجدها أحرص منا على

تراثنا وأسبق إلى السعي إليه والمنافسة فيه . فكم من مصدر من مصادر أدبنا أو تاريخنا أو علمنا لا وصول لنا اليوم إليه إلا عن طريق مكتبة من مكاتب باريس أو لندن أو برلين أو فيينا ! ويا له من تنافس شديد وتسابق مجهد ، ذلك الذي يحرك أمناء هذه المكاتب أو غيرهم من علماء الغرب للحصول على هذه الكنوز العلمية، حتى ان كثيراً بينهم من يأتي من بلاده النائية إلى الشرق سعياً وراءها ، ويبذل الأموال الطائلة والهمم الجبارة في سبيلها !

ومن أتيح له أن يشهد أحد هؤلاء العلماء يقلب صفحات مخطوط من المخطوطات الثمينة ويتأمل سطوره ورسومه قد شعر ولا شك بما ينبعث من صدر هذا العالم من حب للتراث العقلي العربي وشغف به ، ومن احترام يبلغ في أحيان كثيرة حد التقديس . ولا يتسع المجال أمامي لتعديد الأمثال ، والافاضة بالأدلة على ما أقول ، وإنما اكتفي بمثل واحد آخذه من مقدمة المرحوم أحمد زكي باشا لـ كتاب الأصنام لأبي المنذر هشام بن محمد الكلبي الذي نشره عام ١٩٢٤. فقد وصف أحمد زكي باشا في هذه المقدمة تشوق العلامة الألماني نولدكه (Noeldeke) للوقوف على كتاب الأصنام ورغبته فيه بالعبارة التالية : " فهذا الرجل (الذي أرجو الله أن يمد في حياته) ما زال شغوفاً بتطلب نفس كتاب الأصنام ، وما زال يحلم به في اليقظة والمنام، ويجاهر أمام أصدقائه وتلاميذه وأولاده بأنه لايريد أن يفارق الحياة حتى يرى بعيني رأسه هذا الكتاب : "كتاب الأصنام ". فلما علم بأني عثرت على هذه الضالة المنشودة واصطدت تلك الدرة الثمينة ، توسل إليّ بواسطة صديقه وصديقي السويسري هيس (Hess) فأرسلت إلى ذلك العاشق الولهان صورة فتوغرافية من هذا الكتاب " .

ان هذا التقدير البالغ الذي أظهره الغربيون للتراث العربي القديم ، وهذا الحرص الشديد عليه، والسعي الحثيث وراءه هي التي جعلت أكثره يتسرب من أيدينا إليهم ، وينتقل من موطنه العربي إلى بلادهم . ومع أننا نأسف على هذه الخسارة التي مني بها الشرق العربي، فإن المنصف لا يمكنه إلا أن يقدر عمل أهل الغرب حق قدره ، ويشكر لهم هذه الجهود التي بذلوا، إذ لولاها لكان قسم وافر من هذه المؤلفات قد ضاع أو تبدد في

الظلمات كما يضيع ويتبدد الآن كثير من أمثاله في جوانب الوطن العربي المجهولة . وكثيراً ما يكون العالم أو الأديب العربي أقرب إلى هذه المؤلفات وهي في مكتبة غربية بعيدة عنه ألوف الأميال مما لو كانت في بلدته نفسها، لأنه في الحالة الأولى يعرف من السجلات المنظمة مكانها ويستطع تصويرها أو استنساخها متى أراد. أما في الحالة الثانية فقد يكون بعيداً عنها لا سبيل له إلى استخدامها لجهل أصحابها أو طمعهم المادي الزائد ، أو قد تعبث بها الأيدي فتذهب هباء منثوراً ، دون أن يدري بها من يعرف قيمتها ويكون مستعداً لبذل كل مرتخص وغالٍ في سبيلها.

ولهذا ، أراني مدفوعاً إلى توجيه دعوة خالصة صريحة ، صادرة من أصدق الاحساسات القومية وأعمقها، إلى كل من يمتلك مخطوطات قديمة أن يعرضها على أحد العلماء المختصين في قطره أو أن يقدمها إلى إحدى المكاتب أو المتاحف العربية العامة حيث يكون أميناً عليها، فتحفظ لأبناء العرب ينهلون من موردها جيلاً بعد جيل . فقد آن لنا أن نعتمد على أنفسنا في حفظ تراثنا وألا نبقى عالة على الغرب وأهله في أمر من أخص أمورنا . وليس اهداء كتاب إلى أمتنا- مهما بلغت قيمته المادية- بتضحية كبيرة منا، بل هو واجب من أقدس واجباتنا، لأن هذه الآثار ليست في الواقع ملكاً شخصياً لنا ، وإنما هي ملك الأمة العربية وملك العلم والثقافة والمدنية .

ومن البديهي أن ما نقوله عن المؤلفات القديمة يصح بالمعنى نفسه عن النقود، والنقوش، والملابس، والأسلحة وسواها من مظاهر تراثنا الاجتماعي والثقافي القديم . فكم تدفع المصادفات بعض هذه القطع الأثرية إلى يدنا ، فلا نبذل لها ما تستحق من الاهتمام ، أو لا نهتم بها إلا بقدر ما تدر علينا من ربح مادي ، غير قادرين قيمتها العلمية والثقافية أو شاعرين بالمسؤولية التي تترتب علينا لحفظها ورعايتها تحت سماء هذه البلاد التي شهدت حياتها الماضية وبين أيدي أحفاد الذين أظهروها للوجود.

وما ذكرته عن اهتمام الغربيين بمؤلفاتنا القديمة يصدق هنا عن اهتمامهم بهذه المظاهر الأخرى من تراثنا العربي . وليس من الضروري أن أسرد هنا أسماء العلماء العديدين ، والبعثات والمؤسسات المختلفة التي أتت هذه

البلاد لتنقب فيها وتكشف عن آثارها . لا ! وليس من الضروري كذلك أن أشير إلى الأموال الطائلة التي أنفقتها أو إلى الجهود العظيمة التي صرفتها: تلك الجهود التي كانت تبلغ أحياناً حد المخاطرة بالحياة ، كما حدث لبعض أولئك الذين رادوا الجزيرة العربية سعياً وراء آثارها. انني أترك هذا كله - وحولنا الكثير مما ينبىء به - لأقص قصة حجر واحد من الأحجار التي تزخر بها هذه البلاد :

في سنة ١٨٧٩ زار الرحالة الإفرنسي شارل هوبر (Charles Huber) واحة تيماء الواقعة في شمالي الجزيرة العربية ، فلمح بين أحجار احدى آبارها المتهدمة حجراً يحمل نقشاً قد امحت أكثر سطوره ككثير من الأحجار التي يمر بها واحدنا فلا تثير في نفسه أدنى اهتمام . ولم يتمكن الرحالة من أخذ هذا الحجر، فغادر الواحة وفي قلبه غصة وألم . لكنه عاد سنة ١٨٨٣ مستصحباً معه عالماً ألمانياً طويل الباع في اللغات السامية يدعى يوليوس يوتنغ (Julius Euting) ، فنقل كل منهما صورة عن الكتابة المرسومة على الحجر، ثم تمكنا من شرائه وإرساله إلى حائل عاصمة ابن الرشيد . وسارا بعد ذلك إلى العُلى وافترقا فيها . أما الأول (هوبر) فذهب إلى جدة ، ثم عاد إلى حائل ، فتصدى له في الطريق من قتله . وأما الثاني (يوتنغ) فهاجمه البدو، لكنه تغلب عليهم ، وقتل منهم اثنين ، ووصل إلى القدس سالماً . وكان قد أرسل صورة الكتابة التي نقلها إلى العالم نولدكه (Noeldeke)، فأسرع هذا إلى نشرها . غير أن رينان (Renan) الفرنسي تسلم بدوره الصورة التي نقلها هوبر فنشرها أيضاً ، وعرّض بيوتنغ ونولدكه الألمانيين متهماً إياهما بأنهما هضما حقوق هوبر . وفي تلك الفترة كان أمير حائل قد بعث إلى جدة رسولاً يسأل عمن يتسلم حوائج هوبر ومن بينها الحجر الأثري، وكان العالم الهولندي سنوك هرغرونيه (Snouck Hurgronje) قد وصل إلى الحجاز فأخذ يتصل بالرسول ، فقام القنصل الفرنسي في جدة يتهمه بالعمل لايصال الحجر إلى برلين وسعى لدى الحكومة العثمانية لاخراجه من الحجاز . وبعد لأي تسلم القنصل الفرنسي الحجر المذكور، وأرسله إلى باريز. وهكذا احتل حجر تيماء - وهو من أهم النقوش الساميّة من حيث اللغة والمادة التاريخية - مكانه في اللوفر، ولا يزال بعض

العلماء الألمان يتحسرون عليه ويعتقدون أن متحف برلين أحق به وأحرى .

من أجل هذا الحجر الذي قد يعثر به أحدنا فلا يلتفت إليه ، رحل عالمان من موطنيهما البعيدين إلى الجزيرة العربية فقتل أحدهما وكاد الثاني أن يلقى حتفه ، وتنازع صحبهما من العملاء، وتدخل قناصل دولهم : كل يدّعي الفضل في اكتشافه والحق في حيازته في متحف أمته. وفي هذا الدليل الواضح على حرص الغربيين على تراثنا القديم وتنافسهم الشديد في سبيله .

ولست أشيد بما فعل الغربيون انتقاصاً للجهود التي بذلتها ولا تزال تبذلها الحكومات والهيئات العربية في سبيل حفظ آثار هذه البلاد ، بل استنهاضاً للهمم ، وشحذاً للعزائم ، إذ لا تزال دون الغاية التي نسعى إليها مراحل وخطوات واسعة لا يتيسر لنا قطعها إلا عندما نشعر كلنا- أفرادا وجماعات- بالمسؤولية القومية الكبرى التي ألقتها على عواتقنا الأجيال السالفة ، فنهب لحفظ تراثنا الثقافي العربي صيانة لماضينا ، ورعياً لحاضرنا، وحرصاً على مستقبلنا.

٢- إحياؤه

تحدثت في القسم الأول من هذا البحث عن تراثنا الثقافي العربي ، وعن الواجب الذي يحدونا إلى حفظه سليماً من الفساد والضياع ، حرصاً على الروابط الروحية المتينة التي تصلنا به، وعلى الثروة العقلية والفنية التي نستمدها منه لبناء شخصيتنا الجديدة . غير ان السعي لحفظ هذا التراث- على ضرورته وأهميته - غير كاف بنفسه ، وإنما هو خطوة تمهيدية ووسيلة إلى غاية. ولا يتم الواجب الملقى علينا إلا بالعمل على احياء هذا التراث احياء يصبح فيه قريباً منا ونحن قريبين منه ، فنرد مناهله العذبة المحيية ونغب منها على الدوام .

ويقوم هذا الاحياء في أن يعمد أدباؤنا الملهمون وعلماؤنا المدققون إلى الآثار العقلية النفيسة التي يمتاز بها التراث العربي القديم ، فينقلوها إلى أبناء العربية بلغة هذا العصر وأسلوبه وطريقة تفكيره ، مشيرين إلى مواطن الحق والجمال فيها ، وناشرين الرسالة

العلمية والأدبية المتغلغلة في طياتها. فكلنا يعلم بغزارة الإنتاج القديم ، وبذلك السيل من الكتب والرسائل الذي فاض من أقلام العرب في شتى نواحي الثقافة . وكلنا يشعر، في الوقت نفسه ، بنمو العلم الحديث وتفرع أبحاثه وطغيان وسائل النشر والتأليف ، مما لا يدع لابن هذا العصر مجالاً واسعاً للتوفر على جميع مناحي الثقافة العربية وتتبع مجلداتها الضخمة الوفيرة لانتقاء ما تحويه من العناصر الخالدة . وهذا من أهم العوامل التي تبعد أكثر شبابنا وشاباتنا عن هذه المؤلفات القديمة وتقيم الحواجز بينهم وبينها . فلو ان الأدباء أقدموا على تلخيص هذه المؤلفات باللغة التي يفهمون لقاموا بمهمة جليلة وسدوا ثغرة واسعة في ثقافتنا الحاضرة . وإذا أردتم مثالا على ما أعني ، فدونكم كتاب على هامش السيرة للدكتور طه حسين . فإن هذا الأديب الكبير عمد إلى كتب السيرة النبوية واستمد منها جمالها ورونقها ، وصاغ بعض حوادثها الرائعة في مقاطع أدبية لا ينتهي منها القارىء إلا وفي نفسه شوق للاستزادة منها ولورود المعين الاصلي الذي فاضت عنه . ولقد عبر الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه عن هذه الحاجة الثقافية عندما قال : "فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الأدب العربي القديم عامة ، والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة ، فأنا سعيد حقاً ، موفق حقاً إلى أحب الأشياء إليّ وآثرها عندي. وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى ، ويلفتهم إلى أن في سذاجتها ويسرها جمالاً ، ليس أقل روعة ولا نفاذاً إلى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحديثة المعقدة ، فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد".

وليس من شك في أن كثيرين من شبابنا قد عرفوا من الحياة العربية القديمة عن طريق هذا الكتاب وأمثاله ما لم يكن لهم سبيل إلى معرفته بدونها ، وأن غير واحد منهم قد تفتحت له من خلالها آفاق واسعة في الأدب العربي القديم فعاد إلى مصادره وأصوله يجد فيها الفائدة الأدبية والمتعة العقلية.

***

على أن هذا النوع من الإحياء- القائم على تلخيص المصادر القديمة وصوغها في قوالب التفكير والتعبير الحديثين- ليس كافياً وحده ، وإنما يجب أن يصاحبه عمل احيائي آخر، هو نشر هذه المصادر بنصوصها الأصلية وشكلها التام . فإذا كانت مطالب العصر الحاضر لا تسمح لأحدنا بأن يقف على مصادر الثقافة العربية في جميع نواحيها ، فليس يضيره ان يختار لنفسه ناحية من هذه النواحي ويعمد إلى مطالعة أصولها ودرسها درساً دقيقاً . وكلنا يعلم أن أصحاب الثقافة الصحيحة من رجال الغرب لا يكتفون بما يقرأون عن رجال الأدب والعلم وعن مآثرهم، وإنما يحرصون على قراءة ما كتبه هؤلاء بنصوصه الأصلية . وما ذاك إلا للحقيقة الواقعة وهي أن المرء لا يستطع تقدير علم من أعلام الأدب تقديراً حقيقياً إلا عندما يتصل به اتصالاً مباشراً دون أية وساطة تقف حاجزاً- مهما كان شفافاً - بينهما ، وان واحدنا لا يتوفق إلى تفهم عصر من العصور الماضية إلا إذا عاش في جوه الخاص المنبعث من لغته وأساليب تفكيره التي يمتاز بها عن سواه من العصور.

ونحن إذا ألقينا نظرة على هذه المصادر والمؤلفات العربية القديمة بشكلها الحاضر ألفيناها في حالة لا تدعو بوجه من الوجوه إلى الاقبال على مطالعتها والتوفر على درسها . فمنها ما نشر في بلاد الشرق العربي، ومنها ما خرج من مطابع الغرب . أما الأولى فأكثرها سقيم الطبع ، قبيح الشكل ، رديء الورق والغلاف ، عار من جميع الوسائل الحديثة التي تجهز بها المنشورات العلمية كالفهارس وقوائم المفردات وسواها . هذا علاوة على ما دخل نصها من التحريف والتبديل والتحويل ، مما لا يدعنا نثق به أو نطمئن إلى صحته . وموجز القول ان أكثر هذه المصادر المطبوعة في البلاد العربية غير مستوفية للشروط العلمية والفنية التي يقوم عليها النشر الحديث . فلا عجب اذا صدت ناشئتنا عنها ، ونعتتها بازدراء بـ "الكتب الصفراء"، وتهالكت على المؤلفات الغربية التي تقدم لها بقالب جميل وشكل مغر فتان . والحق ان الثقافة العربية القديمة لتلقى أشد أنواع المنافسة من الثقافة الغربية الحديثة ، فإذا نحن لم نحببها إلى ناشئتنا، ولم نستخدم ما تستخدمه الغربية من سبل الدعاية ووسائل الاغراء ، لم يكن لنا

أمل في احياء الآثار العربية وفي تلقيح أبنائنا ببذورها المفعمة بالخصب والحياة .

وأما المصادر العربية المطبوعة في الغرب فمعظمها مستوف للشروط العلمية والفنية التي ذكرنا. وكل من يطالع هذه المطبوعات ويقابلها بما نشر في الشرق العربي يتحقق حالاً من هذه الصفات التي تمتاز بها ، ويشعر بالجهد الذي بذله ناشروها للوصول إلى نصها الصحيح ، ثم لإرشاد الباحث إلى جزئياتها (بما جهزوها به من فهارس وسواها)، وأخيراً لإبرازها بشكل ترتاح إليه العين ويستسيغه العقل والذوق . ولكن ناشئتنا قلما تصل إلى هذه المنشورات إما لغلاء ثمنها، وإما لقلة انتشارها في أسواقنا وعدم انتظام تجارة الكتب في بلادنا . كما انه من العار علينا أن نبقى في هذا الأمر. أيضاً- كما هي حالنا في حفظ تراثنا- عالة على الغرب نتكل عليه في احياء هذا التراث ، وفي نشره وتعميمه بين الناس .

من أجل هذا، وجب أن يهب علماؤنا ومؤسساتنا الثقافية إلى الاضطلاع بهذه المهمة الجليلة،. فيعملوا على نشر مصادر ثقافتنا العربية بما يتفق والشرطين الأساسين اللذين يفرضهما العلم الحديث : وهما دقة التحقيق ، وجمال العرض .

***

ومن البديهى الذي لم يعد يحتاج إلى دليل ان هذا الاحياء- سواء أكان في نشر المصادر القديمة أم في تلخيصها والتأليف عنها - لا يتم على الوجه الأكمل إلا إذا بني على أساس التنظيم الصحيح .

ولا أعدو الحقيقة إذا قلت ان الغرب لم يبسط أمامنا- نحن العرب- رسالة أوضح وأهم من " التنظيم " ، وان اختبارات السنوات الأخيرة يجب أن تكون قد علمتنا أن التنظيم شرط أساسي لنجاح أي من أعمالنا القومية . فلكم يعزم أحد أدبائنا على أن يحيي مصدراً من المصادر القديمة، ويمضي في عمله خطوات عديدة ، ثم لا يلبث أن يسمع ان أديباً آخر قد سبقه إليه ونشره من قبله. وكم يحدث ان بعض الناشرين يعمدون إلى كتب قليلة الأهمية يولونها من العناية ما لا تستحق، في حين أن كثيراً من

أمهات المصادر لا تزال دفينة في خزائن الكتب والمخطوطات. ثم ان نواحي الثقافة المختلفة لا تنال في مثل هذه الحال من الفوضى نصيباً متساوياً من اهتمام العلماء. فالذي يلقي نظرة سريعة على ما أحيي من المصادر القديمة يلاحظ ولا شك ان كتب الأدب والتاريخ فيها تطغى على ما سواها ، وانه بينما أصبحنا نملك عدداً لا يستهان به من دواوين الشعراء وتواريخ المؤرخين نكاد لا نجد بين أيدينا إلا النزر اليسير من الأصول الفلسفية ، وأقل منه من المصادر العلمية والفنية ، منشوراً نشراً مرضياً . جميع هذه العلل والشوائب لا تزول إلا بالتنظيم الصحيح الذي يجمع جهود الأفراد والمؤسسات ويصرفها إلى الأهم فالمهم من الأعمال، دون تضارب أو تبذير أو خسارة . ويعظم خطر هذا الأمر في أعيننا إذا ذكرنا اننا في حالتنا الحاضرة- وقد سبقتنا الأمم أشواطاً بعيدة - لأحوج ما نكون إلى كل ذرة من قوانا وإلى كل نبضة من قلوبنا لكي نحفظ كياننا ونبلغ غايتنا.

***

تلك هي السبل التي يجب أن نسير عليها في حفظ تراثنا العربي القديم واحيائه . ولا يغرن أحدا ما يردده البعض من أن الثقافة العربية قد ماتت واندثرت وأنه لا سبيل إلى احيائها ، أو أنه لا غنى لنا في هذا الاحياء الذي يصرفنا عن اقتباس العلم الحديث والثقافة الغربية . فالثقافة العربية التي سادت العالم عصوراً طوالاً ، والتي لم تمحها أجيال من الارهاق والاضطهاد لها من القوة والحيوية ما يضمن لها البقاء . ولن يضيرها ان تتصل بالثقافة الغربية وتأخذ عنها . فقد اتصلت في الماضي بثقافات متنوعة وحضارات متباينة واستمدت منها عناصر وافرة ، فلم تضعف بها ، بل ازدادت قوة على قوة وحياة في حياة .

أجل ! ليست جميع نواحي هذه الثقافة سواء في تأثيرها في حياتنا الحاضرة . فنظريات العلماء العرب مثلاً ليست ذات فائدة تطبيقية في عصرنا هذا ، وكثير من مبادئهم الفلسفية لا يمت بصلة إلى مشاكل العقل الحديث . ولكن من منا لا يقرأ كتب الأدب القديم ، أو مجموعات الحكم والأمثال ، أو رسائل الدين والحكمة والأخلاق ، ولا يستمد

منها مما ينمي عقله وعاطفته ونفسه؟ حتى كتب العلم التي لم يبق لنظرياتها إلا الفائدة التاريخية ، أليست تنشر لنا من طيات مجلداتها الضخمة التي بذل العلماء أنفسهم في وضعها صفات الصبر والصدق والبحث عن الحقيقة التي كانت ولا تزال رائد العلماء في جميع العصور والأقطار؟ حقاً ان الذي ينكر على التراث العربي القديم رسالته إلى أبناء هذا العصر والى الإنسانية عامة لا يعرف حقيقة هذا التراث ولم ينهل من منابعه الفياضة المحيية.

والغريب ان هؤلاء الداعين إلى نبذ التراث العربي أو اهماله يرددون ذلك في عصر نرى فيه الأمم النازعة إلى حياة جديدة تجمد إلى ثقافتها القديمة فتحييها وتجعلها عنوان مجدها وقبلة آمالها. ففي الوقت الذي تسعى كل أمة نشيطة من أمم الشرق والغرب - من تركيا وايران إلى فرنسا وانكلترا وايطاليا والمانيا وسواها من الأمم الصغيرة والكبيرة- إلى تقديس تقاليدها وتبجيد حضارتها، لا يسع الأمة العربية إلا أن تعمل على بعث تراثها القديم ، وروحها التي ولدت تمدنها التالد والتي بها تفرّدت عن غيرها من الأمم . فكل من لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل. والأمة التي لا تعنى بروحها لا يمكنها أن تحيا ، أو أن يكون لها يد في تقدم التمدن البشري.

حقاً ، ان من التراث الثقافي العربي لكنوزاً خليقة بأن تبعث ، ولمآثر حرية بأن تحيا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ضآلة ثقافتنا العلمية

لقد اعتدنا ان نصف الطور العقلي الذي نمر به بالتجدد والانبعاث ، وندعوه بشيء من الزهو والمباهاة : " دور النهضة الحديثة ". وانه لكذلك - دور نهضة وتقدم - إذا قورن بما كنا نرزح تحته من جهل وفقر روحي في القرون الماضية الأخيرة . ولكن الناظر في أمر نهضتنا هذه ليجد انها لا تزال في بدء نموها ، وان فيها كثيراً من الضعف والنقص يتطلب معالجة سريعة فعالة كي تؤتي هذه النهضة أكلها طيباً وثمارها يانعة .

ولست أقصد الآن أن أشير إلا إلى ناحية واحدة من نواحي هذا النقص في نهضتنا ، وهي ناحية قد استلفتت- ولا شك : أنظار علمائنا وأدبائنا والقائمين على أمر التربية والتهذيب فينا، ولكننا نظل نتجاهلها ونتناسى عواقبها الوخيمة فنحتاج بين فترة وأخرى إلى من يذكرنا بها ويدعونا إلى تدبرها ومعالجتها .

ان النقص الذي أعني هو ضآلة ثقافتنا العلمية ، هو الفقر العلمي الذي يظهر جلياً في حياتنا الفكرية الحاضرة . وأعني بالعلم تلك الأبحاث المنظمة في المواضيع المتعلقة بالطبيعة وبحياة الإنسان فرداً ومجموعاً ، أي ما اعتدنا أن نشير إليه بقولنا : العلوم الطبيعية، والرياضية، والاجتماعية... إلخ . فبينما ترانا ننصب على المواضيع الأدبية ونبادر إلى معالجتها وتحبير المقالات الطويلة فيها ، تجدنا من جهة أخرى لا نمس الأبحاث العلمية إلا بمقدار ضئيل ، ونهملها إهمالاً يدعو إلى الأسف ويبعث على القلق .

يتجلى هذا الفقر العلمي في مظاهر متعددة من حياتنا العقلية لا يتسع المجال لاستقصائها كلها ، فاكتفي بالإشارة إلى ثلاثة من أهم هذه المظاهر وأكثرها دلالة على الاتجاهات البارزة في تفكيرنا الحاضر.

يتجلى بداية في مجلاتنا وجرائدنا التي تعنى بالأبحاث العقلية وتحاول أن تؤدي رسالة ثقافية. فهي تفتح صفحاتها الواسعة للمواضيع الأدبية ، وتملأ أعمدتها الطويلة بمنتوجات قرائح الأدباء من نثر وشعر . وتثير المسائل الأدبية ، فيختلف عليها الكتاب والنقدة ، وينقسمون فرقاً وأحزاباً : فمنهم اتباع القديم، ومنهم أنصار الحديث ، ومنهم الرمزيون، وغير الرمزيين ، إلى غير ذلك من أسماء وألقاب تتزاحم أمام عينيك عند مطالعاتك أية مجلة من مجلاتنا العربية .

ولا يخفى أن كثيراً من هذه المقالات الأدبية تبحث في مواضيع جزئية قليلة الأهمية وتأتي أحياناً بآراء تافهة خفيفة الوزن والقيمة ، في حين ان هناك مواضيع علمية جليلة هي اليوم من أهم أسس الثقافة الحديثة لا تجد بيننا من يعالجها أو يشير إليها . فكل علم من العلوم، طبيعياً كان أم اجتماعياً ، يتمخض بنزعات جديدة ويلد كل يوم اكتشافات ونظريات خطيرة قلّ بيننا من له أدنى اطلاع عليها . وإذا لم يكن من الحق أن نطالب مجلاتنا بأن تتناول الأبحاث الاختصاصية التي تدور حول جزئيات هذه العلوم ، فلا أقل من أن تعنى بالأبحاث العامة في المسائل الأساسية الهامة التي يتناولها العلم الحديث : وهو أساس مدنية هذا العصر .

وتقرأ مجلاتنا وجرائدنا فتقع عينك على أسماء قادة الأدب في الغرب وتتعرف إلى آثارهم ومنتوجاتهم وتقف على الشيء الكثير من حياتهم العامة والخاصة ، ولكن قليلاً ما تلقى فيها زعيماً من زعماء العلم الذين يسيطرون اليوم على قسم عظيم من الثقافة الحديثة ويتقدمون بالعقل الأنساني خطى واسعة في استكشاف حقائق الكون أو تفهم حياة الأنسان . ويطلع علينا كتاب أدبي أو ديوان شعري فتتناوله أقلام كتابنا بالبحث والانتقاد ، وينشئون عنه وعن مؤلفه المقالات الطوال، فتفسح لها المجلات أرحب مجال ، ويصدر أحد الكتب العلمية - وما أقلها عندنا ! - فلا يظفر منا ، ان كان له قسط من الحظ ، بأكثر من إشارة بسيطة أو ذكر عارض .

وقد يقال انه من العنت والجور أن نضع اللوم في هذا التقصير كله على عاتق مجلاتنا وصحفنا ، فهي تصور النزعات السائدة في حياتنا الفكرية وتقدم لقرائها ما

تطلبه أنفسهم من الأغذية العقلية . فإذا ما قامت مجلة ما- كالمقتطف مثلا- وعنيت- بهذه الأبحاث التي نطلب، قل نسبياً عدد قرائها وانصرفوا عنها إلى غيرها من المجلات . والجواب ان للمجلات وظيفة أخرى أسمى من تصوير النزعات الفكرية والتدني لخدمتها : عليها توجيه هذه النزعات وقيادتها ورفعها إلى أعلى درجات النمو والكمال . فلا يمكننا اذن أن نبرىء صحافتنا- وهي الأداة الكبرى لنشر الثقافة خارج جدران المدرسة - من نصيبها من المسؤولية في إهمال هذه الناحية الهامة - الناحية العلمية- من الثقافة الحديثة .

ويلاحظ فقرنا العلمي من جهة أخرى في ما يصدر عنا من كتب ومؤلفات . فلو قمنا باحصاء دقيق للمؤلفات التي تخرجها مطابع الوطن العربي لوجدنا الكب العلمية لا تكوّن منها إلا جزءاً ضئيلاً . فمن دواوين شعرية ، إلى مذكرات ، إلى أبحاث نقدية ، إلى مجموعات ومقالات صحفية ، إلى تواريخ أدبية : تلك هي أهم أنواع منتوجاتنا التأليفية. وبين هذا الحشد الوافر المتزاحم لا تجد المؤلفات العلمية إلا مكاناً ضيقاً تحشر فيه بعيدة عن الأنظار، فلا يعرف بها إلا الأقلون . ولعل أهم وجهات هذا النقص وأشدها خطراً تلك التي تتعلق بالمؤلفات المدرسية. وهي ناحية يظهر أثرها في سوريا ولبنان أكثر منه في البلدان العربية الأخرى . فبينما نجد بين أيدينا كتباً مدرسية جديدة في اللغة والأدب والتاريخ يرجع إليها طلابنا في هذه الدروس المختلفة ، نكاد لا نعثر إلا على نزر يسير من الكتب العلمية باللغة العربية تتناول الرياضيات والطبيعة والكيمياء والحيوان وعلوم الاجتماع وتقدم هذه العلوم إلى الطلبة بلغتهم الأصلية. ولذا يجد طلبتنا أنفسهم مضطرين للرجوع إلى الكتب الأجنبية وإلى تلقن هذه العلوم بلغة غريبة ، وفي هذا ما فيه من الخطر على ثقافتنا العربية ومستقبلها في هذه البلاد .

ويظهر فقرنا العلمي أخيراً عند محاولتنا بعث ثقافتنا العربية الماضية واستخراج تراث أسلافنا لنستمد منه في انشاء الثقافة العربية الجديدة . فنحن قد عمدنا إلى أصولنا الأدبية ، وتنبهنا لوجوب نشرها نشراً صحيحاً ، وعكفنا على استخراج مواردها والاستناد

إليها في أبحاثنا الأدبية. ولكننا لم ننصرف ، إلا قليلا ، شطر المؤلفات العلمية الغزيرة التي وضعها العرب في شتى العلوم لنقف منها على مآثر أسلافنا وموضعها من تاريخ العلم والثقافة . وها ان آذاننا لا تزال ترن وأذهاننا لا تزال تعج بما سمعنا وقرأنا عن المتنبي بمناسبة ذكراه الألفية من الأبحاث والقصائد التي تملأ المجلدات الكبار، فهل أظهرنا جزءاً ، ولو صغيراً ، من هذا الاهتمام بأقطاب العلم العربي الذين لايقلون عن المتنبي ، ان لم يفوقوه ، خدمة للثقافة العربية واعلاء للمجد العربي في حقل العلم والمدنية ؟ هل بيننا من يعرف عن أمثال ابن سينا والرازي وابن النفيس والخوارزمي والبتاني وأبي الوفاء البوزجاني وجابر بن حيان وابن الهيثم والبيروني وغيرهم اكثر من أسمائهم - ان كنا نعرف هذه الأسماء ؟ وهل لنا أدنى اطلاع على حقيقة مآثرهم العلمية التي أخذ العلماء الغربيون يتنبهون لها ويعطونها حقها في تقدم العلم والثقافة ؟ ذلك هو، في ما أعتقد، من أهم مظاهر النقص في ثقافتنا العلمية ، وبالتالي في نهضتنا الحديثة عامة .

***

ولقد يتساءل المرء عن أسباب هذا النقص في ثقافتنا وعن مصادره التي يرجع إليها . لا شك في أنها عديدة متفرعة لا يمكن الاحاطة بها إلا بالدرس الوافر والبحث العميق ، ولكننا لا نكون بعيدين جداً عن الصواب إذا أثبتنا ان أهم هذه الأسباب يعود إلى تدريبنا المدرسي . فإن أكثر عاداتنا الفكرية تتكوّن في عهد الدراسة ، فنحملها معنا إلى الحياة حيث تصحبنا في مراحلنا العقلية المختلفة .

ويخيل إلي ان التقصير المدرسي في هذه الناحية يرجع أولاً إلى أن القائمين على تدريس العلوم عندنا لم ينجحوا بعد في تحبيبها إلى أفراد الناشئة وإثارة رغباتهم في تتبعها والوقوف على أسرارها . فكلنا يعلم ما يشعر به الطالب العادي نحو الرياضيات والطبيعة وغيرهما من العلوم من الكره والبغض الناتجين عن جهل المعلم كيفية أبرازها في حقيقتها واستمالة قلوب الطلبة إليها . فإذا نجح أحد الطلبة في هذه العلوم ومال إليها ، فيكون ذلك غالباً لأن غريزته الطبيعية قد تغلبت على

أساليب التعليم العقيمة فأحب هذه العلوم بالرغم من طريقة أستاذه ، لا بفضلها .

زد إلى ذلك أن أساتذتنا إذا نجحوا في ترغيب الطلبة في العلوم المختلفة نراهم عاجزين عن اثارة هممهم لمتابعة هذه العلوم بعد انتهاء دراستهم ولتعميمها ونشرها بين أبناء بلادهم ، حتى انك لترى أقلية العلماء بين مفكرينا أقلية صامتة عاجزة عن البحث والنشر . فكأن أفرادها خزنوا علمهم لأنفسهم ، أو أنهم لم يدربوا على الكتابة ، فإذا دعوا إليها وجدوها أمراً صعباً جداً ، إن لم يكن مستحيلاً . ولعل ما أشرت إليه سابقاً من درسهم العلوم بلغة أجنبية هو العامل الأكبر في هذا العجز .

وبينما الحال كذلك عند طلبة العلم ومدرسيهم ، نرى أساتذة الأدب على العكس من ذلك يشجعون طلبتهم على الكتابة مهتمين بأسلوب القول أكثر منهم بمادته ، حتى غدا هؤلاء الطلبة يشعرون أن كل من استطاع أن يكتب دون أن يرتكب أغلاطاً لغوية أو كل من مهر في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية يمكنه أن يحمل قلماً وأن يدعى أديباً . فلا يكاد يخرج الطالب "الأدبي" من مدرسته حتى يهرع إلى الصحف والمجلات يتحفها ببنات أفكاره الفجة ، فتنشرها له هذه المجلات وتزيد بذلك غروره وغرور أمثاله من الذين يعتقدون ان الأدب مطية سهلة وان مجال البحث فيه متسع لمن شاء . هذا مع أن الأبحاث الأدبية هي في الحق أشد دقة ويجب أن تكون أبعد منالاً من الأبحاث العلمية ، لأن المقاييس في هذه معروفة محدودة بينما انها في تلك غامضة غير ملموسة . من هنا نشأ تضخمنا الأدبي من جهة ، وفقرنا العلمي من جهة أخرى .

***

إن هذا النقص في ثقافتنا الحاضرة ليبدو خطره واضحاً إذا ذكرنا ان العصر الحاضر هو عصر قد ساد فيه العلم سيادة تكاد تكون تامة في الحياتين العملية والعقلية . ولسنا نحتاج إلى تفصيل هذا الأمر، فإن نظرة واحدة إلى المدنية الحديثة باختراعاتها واكتشافاتها ، وبمختبراتها ومؤسساتها العلمية ، لتؤيد صدق ما نقول . فمن النقص الفاضح أن نكون في عصر العلم منصرفين عن العلم

ومقصرين في حقه ، ومن التقصير المعيب أن لا نجاري الثقافة الحديثة في مضمارها الرئيسي .

الادب التوجيهي وحاجتنا اليه

ليس من شك في أن الكمية الأدبية التي تخرج من مطابع الوطن العربي عظيمة جداً، فالكتب والمجلات والجرائد التي تطلع علينا في كل ساعة من ساعات النهار وتملأ جونا صخباً وضجيجاً تكاد لا تحصى عدداً. والمادة الأدبية التي تفيض منها غزيرة تطغى علينا كأنها السيل الجارف. وإذا جئنا نحلل هذه المادة وجدنا أقلها نافعاً ، وأكثرها ضاراً ، وأننا نقرأها للتسلية و " قتل الوقت "، أكثر منا لما ننشد فيها من غذاء عقلي أو وحي روحي .

إزاء هذا السيل الجارف ، لا بد لنا من أن نفكر في قيمة هذه المادة الأدبية ، وان نتساءل عما هو منها أوفق بحاجتنا في مرحلتنا العقلية الحاضرة . ولا شك في أننا سنجيب عن هذا السؤال بأجوبة مختلفة متباينة : فبعضنا يؤثر الأبحاث الأدبية ، وآخرون الدراسات العلمية ، وغيرهم التحاليل النقدية . وفي كل من هذه الفرق نزعات متعددة وآراء متضاربة. وقد وجهت هذا السؤال إلى نفسي مراراً فخرجت من تفكيري فيه برأي أود عرضه على القراء بايجاز اثارة للبحث في هذا الموضوع الخطير . انني أعتقد أننا ، في مرحلتنا الفكرية الحاضرة، أشد ما نكون حاجة إلى نوع من الأدب يمكننا أن ندعوه بـ " الأدب التوجيهي " .

كلنا يعلم أننا نعيش اليوم في فوضى فكرية بعيدة المدى عظيمة الخطر . نتكلم بألسنة مختلفة وننشر آراء متباينة فتتصادم وتتنازع وتثير في جونا الفكري بلبلة واضطراباً ترتج لهما كل ناحية من نواحي حياتنا . فترانا نتخبط في خضمنا العقلي الهائج ، نصيب الهدف حيناً

ونخطئه أحيانا ، فتتشعب قوانا ، وتتضارب أهواؤنا ، وتتشتت آراؤنا ومرامينا .

ويمكننا أن نرد هذه الفوضى الفكرية التي نتخبط فيها إلى عوامل ثلاثة :

أولها ، ان العصر الحاضر الذي تعيش فيه الإنسانية عامة هو عصر اضطراب فكري وفوضى عقلية . فالحرب العظمى ، وما صحبها ونتج منها من قوى هدامة ، لم يقتصر عملها الهدمي على المؤسسات السياسية ، والنظم الاقتصادية ، بل تعداها إلى المبادئ والعقائد العقلية. فها نحن نرى النظريات العلمية والعقائد الدينية والنظم الفلسفية التي كان أهل القرن الماضي يستندون إليها بأمان واطمئنان ، تنهار أمام أعيننا ، وتحل محلها التيارات المتصادمة ، والنزعات المتناحرة . فالفوضى التي نعيش فيها في الوطن العربي اليوم هي جزء من الفوضى العالمية التي تتخبط فيها الإنسانية عامة والتي لا بد لنا من أن نتأثر بها بعد أن قرب العلم المسافات وجعل من العالم كله بلداً واحداً.

أما العامل الثاني ، فهو خاص بنا . مرجعه أننا نعيش الآن في مرحلة انتقال من القديم إلى الجديد . لقد كنا إلى عهد قريب نعيش في عالمنا الخاص ، ونفكر تفكير أجدادنا أبناء القرون الوسطى، فإذا بالعلم الحديث يهاجمنا بأدواته النظرية والعملية فيدفعنا إلى الجديد دفعاً سريعاً ، وإذا بنا الآن في نزاع مستمر بين قوتين : لم نتجرد بعد من كل القديم ، ولم نعتنق بعد كل الجديد، إنما نقف بينهما منقسمين بعضنا على بعض ، مشتتين في آرائنا ونزعاتنا .

بقي العامل الثالث ، وهو تعدد الثقافات والأنظمة التربوية التي انتشرت في محيطنا . فليس لتربيتنا المدرسية طابع خاص ، أو اتجاه معين . تلقينا العلم من معاهد مختلفة المشارب ، متعددة الألوان ، فأصبحنا لا يوحدنا هدف ، ولا يجمعنا منهج ، ولا يعمنا لسان .

ومن خصائص مرحلة الفوضى هذه ، انها جعلت حياتنا الفكرية مائعة ، سيالة ، ليس لها اتجاه أو موقف ثابت. فالقوى المتعددة التي تنصب عليها وتعمل فيها قد صهرتها

صهراً ، والنزعات المتصادمة قد أذاب بعضها بعضاً فاختلطت وتمازجت . فأصبح من واجب قادة الفكر في عالمنا العربي أن يعملوا على توجيهها إلى الغايات المثلى : وذلك بأن يوضحوا أمامها الأهداف ، ويخطوا في وجهها السبل ويدفعوها فيها ، فتنتظم أحوالها وتقوم بعملها على الوجه الأكمل . لذلك قلت اننا اليوم أشد ما نكون حاجة إلى الأدب التوجيهي .

***

أعني بالأدب التوجيهي ذلك النوع من الأدب الذي يوضح أمامنا الأهداف ، ويوجه قوانا الفكرية إليها ، ولا يزال يعمل موضحاً وموجهاً إلى أن تصبح لنا عقائد تسود حياتنا وتجمع حولها كل ما في نفوسنا من ايمان واخلاص ، وما في عقولنا من فهم وذكاء .

ففي حقل السياسة مثلاً نحتاج إلى أبحاث أساسية في معنى القومية ، والأمة ، والعلاقة بينهما، والعناصر التي تقوم عليها كل منهما ، وكيف تكونت الأمم ، وما هي السبل التي أنتجتها. كذلك علينا أن ننظر في عناصر قوميتنا وطرق بعثها وتوحيدها ، وفي أهدافنا القومية ووسائل تحقيقها . كل ذلك كيما نتوصل إلى عقيدة قومية واضحة ، فننظر إلى مشاكلنا القومية والسياسية نظرة صحيحة ، ونعمل على تحقيق أهدافنا في آمن السبل وأنفع الطرق .

وفي ميدان الاقتصاد يجب أن نبحث في النظام الاقتصادي العالمي ، والعوامل التي تتجاذبه، وموضعنا منه ، والنظريات الاقتصادية الحديثة ، وتصادمها ، وأثر ذلك في السياسة العالمية ، ثم الأسس التي تبنى عليها نهضتنا الاقتصادية ووسائل تحقيقها . وفي الاجتماع نحتاج إلى دراسات صائبة في المؤسسات الاجتماعية - وأهمها العائلة - والقوى التي تتنازعها في الشرق والغرب ، وموقفنا من القديم والجديد في العادات والتقاليد ، والنظريات الاجتماعية الحديثة وإمكان تطبيقها في محيطنا .

كذلك في الأدب ، نحتاج إلى أبحاث عميقة شاملة في "الأنواع " الأدبية ، ووظيفة كل منها ، وحظ أدبنا العربي منها، والوجهة التي يجب أن نسيّره فيها في

النهضة الحاضرة كي يصبح أدباً عالمياً يؤدي رسالته الخاصة للإنسانية المفكرة . فإذا انصرفنا إلى مثل هذه الأبحاث وما يشبهها في كل ناحية من نواحي حياتنا الفكرية ، خفت البلبلة باتضاح العقائد، وقل التصادم بانتظام السبل والمناهج .

ويمتاز هذا الأدب التوجيهي بمزايا ثلاث : أولاً انه أدب بحث واستقراء لا يصدر عنه الكاتب إلا بعد أن يكون قد فكر في ناحية من حياتنا العقلية تفكيراً عميقاً ، فحلل واستنبط ودرس العوامل المؤثرة ، والنتائج المنتظرة . فإذا كتب ، فإنما يكتب ليؤدي رسالة لم تأته عفواً ولم تتيسر له إلا بعد أن أجهد فكره وعقله ليحل مشكلة من المشاكل الأساسية التي تعترض أبناء أمته . ثانياً انه ينظر نظرة شاملة ، فيحيط بالمسائل من جميع جهاتها ، ويرتفع فوق الجزئيات الضئيلة والمواضيع التافهة ، ويرى المشاكل الكبرى والاتجاهات الرئيسية . ثالثاً انه أشد ما يكون اتصالاً بحياتنا الحاضرة ، فهو لا يستوحي الأزمان الغابرة أو الأجيال المقبلة فحسب ، ولا يقلد أدباً قديماً أو جديداً ، وإنما هو ينظر إلى حياتنا الحاضرة ، فيتغلغل إلى صميمها ، ويصورها تصويراً دقيقاً، ثم يرسم لها الخطط وينصب أمامها الأهداف .

وهذه الصفات الثلاث : التعمق ، والشمول ، والاتصال بالحياة ، هي المزايا الرئيسية للأدب الذي يطمح أصحابه إلى أن يكون ذا أثر في حياة أمتهم أو في التفكير الإنساني عامة .

ولا يحسبن أحد ان هذا الأدب التوجيهي يقتصر ضرورة على الأبحاث العلمية الجافة، والمقالات ذات الأسانيد الطويلة . فلو كان الأمر كذلك لتحدد نطاقه ، وقصر مداه . فإن التوجيه قد يكون بقصيدة رائعة ، أو قصة جميلة – إذا صدرت عن تفكير عميق شامل- مثل ما يكون بمقال علمي أو بحث استقرائي . فالمقصود هنا ليس القالب، وانما التعمق والشمول والاتصال الوثيق بالحياة الحاضرة .

***

لسنا نعيش اليوم في عصرترف عقلي ورفاهية فكرية . في عصور الترف والرفاهية ، قد يسمح للكاتب أن يقول : " لي الحق في أن أكتب ما أريد وأعبر عما في نفسي كما أشاء " ، وللفنان أن ينشد : " انني أقصد الفن للفن نفسه " ، وللعالم أن يصرح : " انني أهتم بهذه أو تلك من الأبحاث الجزئية الضيقة " . ان عصرنا هو عصر أزمة فكرية وضيق عقلي ، وكما انه لا يسمح للناس في زمن الأزمة المالية أن يبذروا أموالهم في سبيل شهواتهم الخاصة وأمورهم التافهة ، كذلك يجب أن لا يسمح لقادة الفكر في عصر الضيق العقلي والأزمة الفكرية أن يبددوا قواهم في المسائل الطفيفة والأبحاث الجزئية .

فعلى كل منا عندما يهم بتحبير مقال أوإلقاء خطة أن يتساءل بصراحة : " إلى ماذا أرمي؟ أتراني أضيف بمقالي إلى هذه الفوضى الفكرية التي يتخبط فيها عالمي وأقذف بعنصر جديد إلى العناصر التي تتطاحن في محيطي ، فأزيد في بلبلة أمتي واضطرابها الفكري ، أم أنني أعمل لتوجيه قوى هذه الأمة العقلية نحو فكرة صائبة أو عقيدة واضحة ؟ "

فإذا لم تكن غايته من هذا النوع الأخير، فخير له وللأمة أن تظل كلماته مدفونة في نفسه ، وأن يبحث له عن طريقة اخرى يخدم بها أمته ولغته .

الثقافة الصحيحة وعناصرها

من مميزات الحياة العقلية المضطربة التي نتخبط فيها في الوطن العربي اليوم أننا نتكلم لغات مختلفة تختلط فيها المعاني ، وتتلابس الفكر والآراء . فترى الكلمة الواحدة تجري على ألسنتنا ، أو تتردد في جرائدنا ومجلاتنا ، فإذا هي تحمل المعاني المتضاربة المتناقضة ، وإذا هي قد اكتسبت ألواناً من الفهم مضطربة متنافرة تجعل صعباً عليك أن ترسم في ذهنك صورة صحيحة عنها . وأنت ان حاولت أن تتيقن ما يعني محدثك بهذا التعبير أو ذاك ، وأن تربطه بمعان دقيقة وحدود ضيقة ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، بل اصطدمت بطائفة من التعميمات الغامضة والآراء المترجرجة لا تروي غليل الباحث المدقق . ويعظم خطر هذا الأمر عندما يكون التعبير رائجاً تتداوله العامة والخاصة ، أو تكون له صلة بجوهر حياتنا الحاضرة وبأسس الحياة الجديدة التي نعمل في بنائها .

من أهم هذه التعابير وأكثرها جرياً على الألسنة لفظة " الثقافة " . فما أكثر ما نتحدث عن " الثقافة " عموماً ، أو عن هذه أو تلك من الثقافات ، أو عن الشباب المثقف ، أو نهضتنا الثقافية الحاضرة أو المقبلة. ولكن ، ما أحوجنا ، قبل أن نلج هذه الأبحاث الدقيقة ، إلى أن نعود إلى أنفسنا ، ونقلب لفظة " الثقافة " على وجوهها ، فنوضح غامضها ؟ ونبرز خفيها ، حتى نتمكن من شق طريقنا إليها على هدى وبصيرة . ونحن إذا حاولنا عمل الايضاح هذا وجدنا أنه ليس سهلاً قريب المنال ، فهو يتطلب منا أن ننفذ بتفكيرنا إلى جوهر الأمور ، ويفرض علينا أن نبذل جهداً عقلياً وعلماً و معرفة لا قبل لأكثرنا بها . فإذا أقدمت الآن على هذا الأمر ، وسعيت إلى ايضاح المقصود من هذا اللفظ الذي يدور حوله كثير من تفكيرنا ، فلا أفعل ذلك لأقدم نتائج نهائية ، وآراء لا تقبل التغيير والتعديل ، بل لأثير اهتمام الباحثين بضرورة هذا العمل الايضاحي ، فيعمدوا إلى هذا وغيره من الألفاظ الأساسية في لغتنا العقلية

الحديثة ، ويأخذوها بالبحث والتمحيص ، حتى ينبثق من احتكاك الفكر وتصادم الآراء نور يهدينا في ما يكتنفنا من ظلمات .

***

ولعل خير ما نبدأ به أن نبرىء "الثقافة" من كثير من المعاني التى غشيتها ولابستها في أذهاننا دون أن يكون لهذه المعاني في الواقع صلة حقيقية بها . فإذا خلعنا أولاً عن الثقافة ما ليس منها، سهل علينا بعد ذلك أن نعرف حقيقة ما هي ، ونتصل بروحها وجوهرها.

ليست الثقافة أن تجوز أحد المعاهد العليا ، فتخرج منه حاملاً شهادة ، معداً لمزاولة حرفة من الحرف . فليست الشهادة - مهما علت- لتدل بنفسها على ثقافة رفيعة في نفسك ، وليست ممارسة الحرفة - مهما بلغت فيها من المهارة والاتقان - لتجعل وحدها منك رجلاً مثقفاً ، بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . فلكم من طبيب يحسن تشخيص أدواء الجسم ، ويجيد استخدام المبضع، وهو، مع ذلك ، محدود الفكر ضيق الأفق . ولكم من محام يعرف مداخل الشرع ومخارجه ، ويتقن صوغ الحجج وتفنيدها ، ولكنه لا يستطيع أن يسمو إلى أجواء العقل الصافية ، ويتذوق نعم الروح الحيية. ولكم من صحفي قد برع في رواية الأخبار وتحبير المقالات وهو بعد فقير النفس جدب الفؤاد . ولكم من أستاذ أو متخصص في علم أو فن ، قد حصر نفسه ضمن دائرة موضوعه الضيقة ، فضاع بين الجزئيات التافهة وأخطأ جرهر الأشياء وقيمتها الصحيحة .

وليست الثقافة ان تحشو دماغك بمعلومات متفرقة مستمدة من شتى المصادر، تختلط في ذهنك ويتراكم بعضها فوق بعض ، فتطغى بها على الناس في كل مناسبة أو غير مناسبة. فقد تكون هذه المعلومات - على وفرتها- جزئية فرعية لا تنفذ إلى أعماق الحقيقة ، ولا تمس أسس الحياة. وقد تظل متصلة بعقلك وروحك اتصالاً خارجياً لا تبلغ معه إلى صميمهما ولا تؤثر فيهما. ولعلك تبلغ ما يطمع فيه البعض فتصبح مكتبة نقالة تحوي شيئاً من كل شيء، وتبقى، مع ذلك، بعيداً عن معنى الثقافة الصحيح ، ودون مستواها السامي .

ولست تصبح مثقفاً باكتسابك طلاقة في اللسان، أو ظرفاً في المجالسة ، أو تفنناً في أساليب الكلام والمحادثة . فلكم لقيت في مجلس من مجالس اللهو أو الأدب شخصاً أثار اعجابك بطلاوة حديثة ، واستولى عليك بحسن تعبيره ، ثم اتصلت به وحككته ، فإذا هذه الثقافة المزعومة قشرة خارجية تخفي وراءها جدباً وعقماً ، وإذا هذا اللمعان برق خلب خادع لا يتصل بنور داخلي ثابت ، أو اشراق روحي فياض .

لا ! ليست الثقافة الحقة هذا أو ذاك أو ذلك أو سواها من المظاهر التي اعتدنا أن نطلق هذا اللقب عليها ، وإنما هي شيء أعمق أصولاً وأعظم مقاماً : هي مركب فريد قد تآلفت فيه عناصر عقلية وروحية خالصة ، ونسيج فاخر قد حيك من خيوط مستمدة من جوهر الفكر وصميم القلب.

***

تتألف الثقافة ، في نظري ، من عنصرين أساسين : أولهما معرفة صحيحة يكتسبها المرء بالجهد العقلي الداخلي، ولا يحملها كمجرد رداء خارجي فحسب . وهذه المعرفة ذات ناحيتين هامتين، لكل منهما قيمتها الخاصة .

أما الناحية الأولى فهي اطلاع شامل متوازن على الفِكَر الأساسية التي تقوم عليها العلوم والفنون والآداب . فالحياة العقلية البشرية في جوهرها وحدة لا تتجزأ ، ولا يمكن المرء أن يفهم جزءاً منها فهماً حقيقياً إلا ضمن الاطار الأوسع الذي يضمها جميعاً . فرجل الفن يحتاج إلى أن يطلع على مبادىء العلم الرئيسية ، والاديب يجب أن يكون ملماً بالعقائد الفلسفية التي صاغتها العقول الجبارة خلال التاريخ البشري . ولعمري ان أشد خطر يجابهه الرجل المثقف هو أن يضيع بين جزئيات موضوعه الخاص ، فيخطىء القيم والمقادير الصحيحة ، ويضيق بصره فلا يمتد إلى مرامي الأفق البعيد ، كما أن أعظم مرض عقلي ينتاب الأمة هو أن تتجه في ناحية واحدة من التفكير والشعور، فتنمو نمواً غير متزن أو متناسب .

ونحن إذا جئنا ندرس، بصراحة واخلاص ، حياتنا العقلية الحاضرة وجدنا عدم التوازن هذا بارزاً فيها

بأجلى مظاهره : فالعلم عندنا ضئيل جداً ، والفن يكاد يكون مفقوداً ، والفلسفة لم تلد بعد، وكل جهودنا متجهة إلى الأدب ، وإلى الشعر منه خاصة ، كأن الثقافة تقوم على الأدب وحده أو كأن أمة تسعى إلى المجد والحياة الرفيعة تستطع أن تجابه أحداث الدهر بالأوزان والقوافي أو تتغلب على أزماتها المحيقة بالاحكام الأدبية والآراء النقدية .

ثم إذا تبصرنا في حقيقة الواقع وجدنا هذا الميل الأدبي نفسه بعيداً عما نريده له من شمول وانسجام . فهو منقسم بين اتجاهين يتنازعانه : أحدهما إلى الأدب العربي القديم ، والثاني إلى الأدب الغربي الحديث . وأين نحن من الأديب الذي فهم روح الأدبين ، فانسجما في شخصيته، واستطاع أن يصحح نظرته إلى كل منهما بفهمه الآخر؟ بل أين نحن من الشاعر أو الناثر الذي شعر بضرورة تثقيف نفسه بدرس الآثار الخالدة التي أنجبتها الآداب العالمية الكبرى؟ وإلى أي حد بلغ فهم المثقفين منا للأدب اليوناني ، أو الألماني ، أو الروسي ، أو الهندي مثلاً ؟ ثم أية محاولة جدية بذلها أدباؤنا لتغذية شعورهم الأدبي واحيائه بما ينفثون فيه من روح الفنون الأخرى كالموسيقى ، والتصوير، والنحت ، وسواها ؟

الحق أن أفقنا الأدبي ضيق يجب أن نوسعه بالتسلق إلى القمم الروحية التي حلّق إليها جبابرة الأدب العالمي ، وان ميلنا الأدبي عموماً يجب أن يعدل ويعمق ويمتن بربطه بسائر الفنون التى تسعى مثله إلى الجمال ، وبتغذيته بمبادىء الفلسفة والعلم التي تؤلف عنصراً هاماً من عناصر الثقافة الحديثة ، بل من كل ثقافة رشيدة .

ولرب متسائل يقول : كيف يمكن الإنسان أن يطلع هذا الاطلاع الواسع على العلم ، والفن ، والفلسفة ؟ أليست هذه المحاولة ضرباً من المستحيل ، خصوصاً في هذا العصر الذي تعددت فيه العلوم ، وتفرعت نواحي الثقافة ؟ أليس يقودنا هذا إلى سطحية خطرة ، ويمنعنا من التعمق والنفوذ إلى جوهر الأمور؟

والجواب على هذا كله ان المقصود ليس اكتساب تفاصيل هذه العلوم والفنون وجزئياتها، بل امتلاك الفكر والمبادىء الأساسية التي تقوم عليها، وان وسائل النشر

والتعميم الحديثة تسهل لطالب الثقافة مهمته بما تجهزه به من مؤلفات عامة واضحة يضعها كبار العلماء والأدباء ويبسطون فيها مبادىء العلوم والفنون بأسلوب أخاذ سهل التناول . على أن الشرط الأساسي لتحقيق هذه الثقافة هو أن تكتوي نفس الإنسان بشعور الحاجة إليها، ويبذل جهده الصادق لتحصيلها ، فإذا تم له ذلك وجد طريقها معبداً وسبيلها واسعاً .

وهناك عنصر له أهميته الخاصة في اكتساب هذه النظرة الشاملة التي وصفنا ، أعني به الفلسفة : فإن جوهر الفلسفة أن تحقق في ماهية الأمور، وأن تنظر إلى المسائل في دوائرها الكبرى . فالفيلسوف لا يبحث في جزئيات المواضيع التي تتناولها العلوم والآداب والفنون، بل ينفذ ببصره إلى مبادئها الرئيسية فيجلوها ، ويدرسها موحدة غير مجزأة . ولهذا، وجب علينا أن نوسع ونعمق ثقافتنا الفلسفية ما استطعنا ، شرط أن لا تبقى هذه الثقافة مجموعة معلومات خارجية عن المدارس الفلسفية والمذاهب الفكرية ، بل أن تتعدى ذلك فتصبح معرفة داخلية تجابه مشاكل الحياة العظمى ، وروحاً تدفعنا إلى التعمق في حقيقة الأشياء ، والنظر إلى علاقاتها الكبرى ومشاكلها الرئيسية .

***

هذه اذن هي الناحية الأولى للمعرفة التي تميز الثقافة الصحيحة : اطلاع شامل متوازن، مكتسب بالجهد العقلي الداخلي ، على المبادىء الأساسية التي يقوم عليها العلم ، والفن، والفلسفة. أما الناحية الثانية التي تتمم الأولى ، فهي العلم المتخصص المتعمق ، ومؤداه أن يختار المرء لنفسه وجها من وجوه هذه الثقافة العامة ، ويتناوله بالبحث والتحقيق، ويتقدم إلى جزئياته ، حتى يشعر أنه قد امتلك ناصيته ، وانه يستطيع أن يجول في ميدانه دون أن يحس بوحشة أو غرابة .

ان الاطلاع العام الذي صورناه سابقاً ينقل إلينا أحكام الغير عن هذا أو ذاك من المواضيع العلمية أو الأدبية . أما التعمق الدقيق الذي ننشده هنا فيضعنا إزاء هذه المواضيع نفسها ، ولا يترك حاجزاً من غيرنا يفصل بيننا وبينها . فإذا تخصصت في علم من العلوم ،

وجب عليك أن تماشي تطوراته ، وتتابع اكتشافاته واختراعاته ، وتتصل عقلياً وروحياً بالعلماء الذين يتقدمون به إلى الأمام . وإذا كنت أديباً ، لم يكفك أن تطالع كتب النقدة والمؤلفين المحدثين ، بل دفعك اهتمامك إلى الأصول نفسها التي تعكس لك نفوس الأدباء وخوالج صدورهم ، والتي تنقلك إلى جوهم فتعيش حياتهم ، وتحس شعورهم ، وتتكلم لغتهم . وإذا كانت الفلسفة نصيبك ، اخترت لنفسك فريقاً من كبار المفكرين - أو احداً منهم - فعشت وإياه ليل نهار، تستمد من مؤلفاته آراءه وعقائده ، وتبثه مكنونات نفسك ، وعصارة فكرك ، وتربط حياتك بحياته وروحك بروحه في الجهاد الأقدس الذي تفرضه الفلسفة على صاحبها : ألا وهو طلب الحق، واستكشاف سر الوجود.

***

هذا التعمق إلى الجذور فى ناحية خاصة من نواحي الفكر، إذا ضممته إلى النظرة الشاملة لنواحي الفكر عموما، توافر لك العنصر الأول من الثقافة الصحيحة الا وهو المعرفة المكتسبة. غير ان هذه المعرفة وحدها لا تكفي إذا لم تكن مدعومة بـ العنصر الثاني : وهو تلك القوى العقلية والروحية التي بها يكتسب المرء المعرفة ويجعلها قسما من نفسه وشخصيته . ذلك ان هذا الاكتساب لا يأتي عفواً ودون بذل ومعاناة ، بل بجهاد نفسي يتطلب صفات عقلية وروحية خاصة لا تتم الثقافة السليمة بدونها ، بل هي أهم من المعرفة ذاتها ، لأنها شرط لها : إذا لم تتولد في المرء لم يستطع أن يكتسب معرفة أو أن يسير في الطريق التي تبلغ به إلى الحياة العقلية الصحيحة .

أولى هذه الصفات هي الرغبة الملحة في طلب الحق والتعطش إليه أينما كان ومن أي منبع سال. فالإنسان السعيد في جوه العقلي ، المكتفي بما بلغ إليه ، القانع بنصيبه من العلم ، لا يبلغ هدف الثقافة ولا يتذوق ثمارها الشهية ، وإنما يتيسر له هذا إذا كانت تثور في نفسه عاطفة متأججة تدفعه أبداً إلى التقدم والاستزادة، وإلى استكشاف الحقيقة من خلال المظاهر التي تكتنفها . ويضل من يعتقد ان الحقيقة تظهر نفسها كاملة لفرد من الأفراد . وإنما هو الجهاد في سبيلها، والتدرج في

اجلائها، الذي يضيء نور النفس ، ويخلع على العقل بهاءه وسموه .

وتصاحب هذه الرغبة في طلب الحق صفة أخرى : هي الشك في ظواهر الأمور، والحذر من كل ما يقال ويذاع ، فإذا تعودنا أخذ كل شيء على علاته ، التبس عندنا الصواب والخطأ وغطى الظاهر الباطن . ولذلك وجب أن نقلب كل أمر على وجوهه ، ونشك بمظاهره الخارجية، ونحكه بمحك البحث والتدقيق ، حتى يتبين لنا جوهره ، ونأخذ به عن علم واعتناق داخلي ، لا عن مجرد نقل وتصديق . ولقد أصاب من قال : الشك مفتاح العلم .

هذا البحث والتدقيق الذي يستوجبه الشك لا يتم دون صبر وجهد ومعاناة . ومن ظن أن الثقافة قريبة المنال ، أو أن هدفها سهل البلوغ ، فقد أخطأ . ان على طالب الثقافة أن يكون مستعداً لدفع ثمنها غالياً بما يبذل من عرق جبينه وعصارة عقله ونفسه ، وأن يقضي السنين الطوال جاداً عاملاً ، يجلس إلى مكتبه ساعات متتابعة دون انقطاع ويتوغل في مجاهل الفكر وحيداً فيحتاج إلى أكثر مما يحتاج إليه الضارب في مجاهل الأرض من شجاعة وصبر وقوة. ليست الثقافة لعبة تقنى ولا تسلية يسرّي بها الإنسان عن نفسه ، وإنما هي جهاد يسقى بدم القلب ، وصراع يستمر مدى الحياة .

ويماشي هذا الجهاد تواضع يشرق من جوانب النفس ، مستمد من تيقن المثقف المجاهد ان دائرة المجهول أوسع كثيراً من دائرة المعلوم ، وان العقل الإنساني ضعيف إزاء أسرار الحياة ومشاكلها العظمى ، وان ما يصيب المرء في حياته من حقيقة ليس سوى جزء ضئيل لا يصح معه أي تكبر أو افتخار . ويجر هذا التواضع إلى تسامح يحدونا إلى النظر إلى مآثر الغير بعين العطف والتقدير، وإلى أخطائهم بروح العذر والمشاركة . فما نحن جميعاً سوى مجتهدين : من أخطأ منا فله أجر، ومن أصاب له أجران .

وفوق هذا كله - بل قبل هذا كله- اخلاص روحي للثقافة : فليس للثقافة من غاية غير طلب الحق، والخير، والجمال . فمن دنسها بغاية مادية ، أو هدف شخصي، فقد أخطأها ونزل بنفسه عن مستواها . ولكم بيننا من يقصد من علمه إلى جمع المال ، أو إلى اكتساب الجاه والمقام ،

أو إلى ارواء شهوة التزعم والظهور! بل هل نستطع اليوم أن نميز الثقافة الصحيحة من خلال هذه الغايات الصغرى التي اختلطت بها فأفسدتها ؟

قدماً قال الإمام الحجة الغزالي : " طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله " . فما أحرانا اليوم أن نعتبر بهذا القول الصائب ، وان نجعله دستوراً لنا في حياتنا ، وسنّة في سعينا إلى الثقافة الصحيحة والعلم الخالص .

***

لقد تعودنا أن نقرأ الشيء الكثير عن أزمة المتعلمين في هذه البلاد وفي بعض البلدان العربية الأخرى . وما برح الآباء والبنون ، والحكام والموظفون ، يسمعوننا مر الشكوى من ازدياد عدد المتعلمين ، ومن شدة تزاحمهم على وظائف الدولة وتهالكهم على المهن الحرة ، حتى غصت بهم المدن وغدوا عبئاً على البلاد ثقيلاً بدلاً من أن يكونوا لها في أزماتها الخانقة عوناً ونصيراً . والحق ان هذه المشكلة المتفشية في حياتنا القومية تتطلب من القائمين على أمر البلاد معالجة سريعة قاطعة قبل أن يستعصي الداء ويعدم الدواء : لأنه إذا كانت هذه حالتنا ونحن في مستهل النهضة وفجر الحياة الجديدة ، وبعض البلاد العربية ما زالت قابلة لامتصاص عدد كبير من الشبان المثقفين ، فماذا يصبح أمرنا بعد بضع سنين إذا تابعنا السير على هذا المنوال ؟

على أن الأزمة " المعاشية " في حياة المتعلمين ليست شيئاً إزاء الأزمة الحقيقية التي بها يتخبطون . فتلك خارجية مادية ، وهذه داخلية روحية . ان أزمة المتعلمين الحقيقية ناشئة عن سوء فهمهم - بل سوء فهمنا جميعاً : أفراداً وجماعات ، حكومة وشعباً - لحقيقة العلم، وجوهر الثقافة . فليس من هذا الذي ندعوه علماً ، والذي يظهر بمظهر الشهادات والدرجات الطنانة ، إلا أقل من القليل يخلو من العيب والنقص ويثبت لدى الحك والاختبار، وليس من هذه الثقافة التي نتبجح بها ، والقائمة على المعلومات المتفرقة الجزئية السطحية ، إلا النادر الذي يتسرب دون المظاهر الخارجية إلى صميم العقل وأعماق الروح .

فإذا كان على الحكام والسياسيين منا في الحاضر واجب عظيم خطير في تسهيل سبل المعاش لجيوش المتعلمين وحل أزمتهم المادية ، فإن على القائمين على أمر التربية واجباً للمستقبل أعظم وأشد خطورة : هو حل أزمة المتعلمين الداخلية الروحية : ذلك بأن يستبدلوا بالمظاهر التعليمية - التي يخلعونها على الطلاب الآن خلعاً، وبالمعلومات التي يلقنونهم إياها تلقيناً - علماً صحيحاً ، وثقافة نقية الجوهر غنية العنصر تنمي عقول الناشئة وتنعش أرواحها، فتخلق الأمة خلقاً جديداً وتبعث فيها القوة والحياة .

***

ان من عرف منا شخصاً تتمثل فيه الثقافة الصحيحة ، ونفذ إلى أعماق روحه ، قد تذوق نعمة من أعظم نعم الدنيا وأسماها . لقد خبر الأدب السامي ينزل عليه من القمم الرفيعة حيث النظرة الواسعة والأفق البعيد، ونهل العلم الصحيح يتدفق إليه من أعمق المنابع وأغزرها. ولقد تذوق معهما من جنة العقل ثمار الطلب والشك والجد، وتنشق عبيراً محيياً يعطره التواضع والتسامح والاخلاص . هذه الشخصية الممتازة التي تنبعث معرفتها من نور داخلي دائم ، هذا العقل المتفتح المنتعش بقوة الروح ، وهذه الروح الصافية المنماة بغذاء العقل : هذا هو مثلنا الأعلى في جهادنا لخلق الرجل والمرأة العربيين الجديدين ، المشرقين بسنا الثقافة الصحيحة الكاملة.

***

كيف نحمي ثقافتنا ؟

إن الناظر في أمر حياتنا العقلية الحاضرة ليرى أن ثقافتنا العربية معرضة لشتى أنواع الأخطار، خاضعة لقوى هدامة عديدة دائبة العمل بليغة الأثر . فمن جهود فعالة تبذلها بعض السلطات لاخماد ثقافة البلاد ، إلى فقر في الموارد المالية التي تغذي بها هذه الثقافة ، إلى اضطراب في الادارة المسيطرة عليها ، إلى ضعف في أخلاق القائمين بها ، إلى هذه الموجات الطاغية علينا من الغرب العاصفة بتراثنا الثقافي والاجتماعي- إلى غير هذه من العوامل التي لا تحتاج إلى نظر عميق لاكتشافها وتقدير أثرها .

من أجل هذا، وجب على قادة الأمة الموكل إليهم أمرها أن يتدبروا هذه القوى ، ويدركوا حقيقة خطرها، ويبذلوا جهدهم لدرء هذا الخطر وحماية الأمة منه . ومن أجل هذا أيضاً ، وجب على كل من يهمه أمر هذه الثقافة ويحرص على صحتها وسلامتها ، أن يساهم في النظر والتفكير لايضاح السبل التي تضمن لنا حفظها وصيانتها .

وليس أمر هذا الايضاح سهلاً هيناً . فهو يتصل بنواح عدة من حياتنا العقلية المرتبكة ، ويلامس كثيراً من مشاكلنا المستعصية التي تزداد تعقداً يوماً بعد يوم . على أن هذا العسر الذي يلقاه الباحث في سبيله يجب ألا يقف حائلاً دونه ، بل أحر به أن يكون دافعاً إلى ذلك ، لأن المشاكل التي تواجه الأمم فى طريق تقدمها ونهضتها لا تكون عادة سهلة المأخذ ، يسيرة المنال. فخليق بمفكري الأمة ألا يهربوا منها إلى عالم الوهم والخيال ، بل ان يجابهوها مجابهة واقعية صريحة ، وخليق بأفراد الأمة جميعاً أن يفهموا جهادهم على حقيقته ، وأن يعرفوا ما يعترض تحقيق أهدافهم القومية من مصاعب وعقبات .

وبديهي أنه لا يمكن في مقال واحد أن يوفى هذا الموضوع الخطير حقه ، وأن تستقصى السبل العديدة المتفرعة التي تؤدي بنا إلى حماية ثقافتنا . ولذلك سأقتصر في ما يلي

على ايضاح الأسس العامة التي يصح أن يبنى عليها جهادنا الثقافي ، والمبادىء الأولى التي يتحتم علينا وضعها موضع العمل إذا أردنا أن نحفظ ثقافتنا من البلبلة والضياع. ومبلغ رجائي أن يثير هذا عند قادة الرأي فينا البحث والتفكير ، وان يشرق من هذا البحث قبس من النور يهدينا إلى السبيل السوي .

***

لقد اختلفت آراؤنا في الطرق الناجعة لمعالجة الأدواء التي تنتاب ثقافتنا العربية . فمنا من يرى ان بذور هذه الأدواء تغرس في البيت العربي ، وأن علينا أن نخنقها في مهدها برفع مستوى الأم لتؤدي واجبها القومي تأدية صحيحة فترضع أبناء الأمة محبة بلادهم ولغتهم ، وتزرع في نفوسهم الإباء القومي والعزة الوطنية ، ومنا من يعتقد ان سبيل الخلاص هو في اصلاح برامج التعليم وتوحيدها في جميع الأقطار العربية ، ومنا من يجد في اللغة اساس الثقافة المتين فيصرف عنايته لحفظها سليمة من الأذى خالصة من الشوائب ، ومنا من يخاف على تراثنا الثقافي من عناصر المدنية الحديثة فينادي بالمحافظة على القديم من العلم واللغة والأدب وصونه من العبث والخسران : إلى غير ذلك من المقترحات المتفرقة التي تنطوي على كثير من الحق، والتي يجب أن تنال من علمائنا ومفكرينا أكبر قسط من الدرس والاهتمام . غير انه من الواجب علينا كذلك أن ننظر إلى المشكلة بصورة عامة ، وأن نضع هذه وسواها من المقترحات في مكانها من الخطة الكبرى التي سنسير عليها في جهادنا الثقافي . هذا ما سأحاوله في الأسطر التالية ، بكثير من الحيطة والحذر، ليقيني من صعوبة الموضوع ، وتداخل أجزائه ، وما يكتنفه من أشواك ومزالق.

وأبادر أولاً إلى القول ان هذا الجهاد الثقافي لا يحقق غايته ويصيب هدفه إلا إذا كان مرتبطاً بجهاد قومي حي شامل يتناول الحياة العربية من مختلف نواحيها ويسعى بها إلى الحرية التامة بأصدق معانيها . فإن عملنا لحفظ ثقافتنا من الضعف والانهيار يظل هزيلاً مضطرباً ما لم يتحد روحاً وقالباً بالعمل القومي الأوسع . هذا هو الشرط الأساسي والقاعدة الأولى ، عنه تتفرع جميع المبادىء الأخرى ، ومنه تنحدر جميع الصفات التي يجب أن

تميز جهادنا الثقافي . وان لنا من الغرب في تاريخه الحديث أصدق العبر، فإن أشد الأمم الغربية حرصا على لغتها وأدبها ومآثرها العقلية هي التي تنبهت إلى حياة قومية جديدة ، وأخذت تتطلع إلى آفاق من العز والمجد بعيدة . نرى جهودها التي تبذلها في سبيل صيانة ثقافتها ورفعها مرتبطة أشد الارتباط بالجهود المنصرفة إلى النهوض بنواحي حياتها الأخرى ، وان هذه الجهود كلها يستمد بعضها من بعض قوة ونشاطاً ، وتكتسب من اتحادها في النهضة القومية الكبرى معنى وحياة .

ومتى تبين لنا هذا ، برزت أمامنا عدة مبادىء يصح ان نتخذها أسساً للجهاد الثقافي المثمر . أولها ان هذا الجهاد الثقافي لا يمكن أن ينفصل عن الجهاد السياسي لتحرير البلاد وتقوية سلطانها . ذلك ان الأداة الحكومية هي من أعظم الوسائل المنظمة الفعالة لحفظ الثقافة ورعايتها، فإذا كانت الأمة تملك الحرية التامة في عملها، في تفتحت أمامها السبل للقيام بهذه المهمة . أما إذا كان الأمر على عكس ذلك ، فثقافة البلاد تظل عرضة للخطر وملعباً للأهواء . ونحن نرى عند الأمم الغربية الناهضة ان الحكومة تتوسع كل يوم في بسط نفوذها على أمور التعليم والثقافة، وتسعى جهدها لتنظيمها وحصرها في يدها ، وبذلك تحافظ على وحدتها وتصونها من عبث العابثين . ونرى كذلك ان الأقطار العربية التي تقدمت في معارج الاستقلال تستطيع أن تبذل في حماية الثقافة العربية واحيائها ما لا تقدر عليه الأجزاء الأخرى من الوطن العربي التي لم تتسلم بعد مقدراتها كاملة سليمة .

وان هذا الارتباط بين الجهاد الثقافي والجهاد السياسي ليشتد ويبرز. في العصر الحديث خاصة . فالأمم الطامحة إلى التوسع والغلبة قد استنبطت الوسائل الفعالة للقضاء على ثقافة الشعوب المحكومة ، وعرفت ان ثقافة الأمة هي عصبها المتين وحصنها الحصين ، وان أضمن سبيل لاخضاعها هو تبديد لغتها ، واضاعة أدبها ، وقطع الصلات بينها وبين تراثها . ولا شك في أن هذه الأمم تختلف في الطرق التي تتبعها لهذه الغاية ، وفي المدى الذي تبلغه ، غير ان بعضها لا يتردد عن استخدام أشد الوسائل عنفاً ،

ولايتورع من السير إلى أبعد مدى كي يفني ثقافة الشعب المحكوم افناء تاماً ، ويمتصه امتصاصاً كاملاً .

ولذا فمن العبث أن نأمل من جهادنا الثقافي ثماراً صحيحة ناضجة إذا لم يكن مدعوماً بجهاد قومي واسع يرمي إلى تأمين سيطرة الأمة سيطرة كاملة على منظماتها التعليمية والثقافية ، وإلى تقويتها وتمكين سلطتها لتقف في وجه تلك الدول الطامحة التي إذا سادت عليها هدمت بأقصر حين ما بنته جهودها الثقافية بعديد السنين. وليس يعني هذا ان الجهاد الثقافي بنفسه لايفيد شيئاً ، وأنه لايصح أن ننصرف إليه إلا بعد أن نفرغ من جهادنا السياسي . فإن العمل لحفظ الثقافة واحيائها يستطع دائماً أن يجد لنفسه منفذاً بالرغم مما يحيط به من حدود ، كما أنه يدعم هو نفسه العمل السياسي ويغذيه، غير أنه لا يستطع أن يبلغ غايته ويؤتي أكله شهياً ، إلا إذا تخطى تلك الحدود، وعاش حراً طليقاً ، خصوصاً في هذا العصر الحديث الذي نعيش فيه .

والمبدأ الثاني للجهاد الثقافي ، المستمد من مبادىء الجهاد القومي الشامل ، هو أن يكون محدد الغاية ، واضح الهدف . فالعمل الذي لا يتطلع إلى غاية واضحة لا يرجى له خير أو نجاح، بل تتوزع جهوده ، وتتفرع قواه ، وتتسرب موارده إلى هنا وهناك فلا تحدث أثراً ، ولا تعطي ثمراً . فعلى الذين يقودون العمل لحفظ الثقافة العربية أن يحددوا هذه الثقافة ، و يبينوا عناصرها التي تتكون منها ، وأسسها التي تقوم عليها . من واجبهم أن يحيوا ماضيها الذي انبعثت منه ، وأن يكشفوا عن حاضرها الذي تضطرب فيه ، وأن يوضحوا الرسالة التي ستؤديها في المستقبل. فليس عند أبناء العرب اليوم مفهوم صحيح مشترك للمقصود من الثقافة العربية . هم يشعرون بروابط ثقافية توحدهم ، ولكن هذه الروابط لم تتبين لهم بعد على حقيقتها وتمامها . وما من أمة إلا ولها عبقرية خاصة ، هي وليدة العوامل المختلفة التى تتفاعل في حياتها ، وهذه العبقرية تتمثل في ثقافتها التي تتميز من ثقافات الأمم الآخرى . فما هي عبقرية الأمة العربية الممثلة في ثقافتها، وما هي خصائصها ، ومن أي المصادر تحدرت ؟

هذه وأمثالها من الأسئلة تجابه الأمة العربية في بعثها الجديد، وتتطلب أجوبة صريحة لا مواربة فيها ولا التواء ، أجوبة تنطوي على أمور ثلاثة جوهرية : أولها، ماضي هذه الثقافة. وهذا لا يتضح لنا إلا بعد أن نسير في إحياء تراثنا شوطاً بعيداً ، ونعمل في هذا الإحياء عملاً متزناً يتناول جميع نواحي التراث من علم وفلسفة وأدب . وثانيها، حاضر هذه الثقافة ، وهو لا ينكشف إلا إذا لمسنا القوى التي تعصف بها وتعمل على تبديدها ، وفهمنا الثقافة الغربية التي تطغى علينا فهماً صحيحاً وحددنا موقفنا منها . وثالثها، مستقبل هذه الثقافة ، وهذا لا يتبين إلا لمن فهم تطور الأمم والمدنيات ، وأوتي من بُعد النظر وصفاء الذهن ما يتطلع به إلى الآفاق البعيدة ليرسم السبيل الجديد بثقة واطمئنان . هذا كله متوجب على قادة الفكر من العرب اليوم ، كي يبلغوا إلى ذلك التوضيح الذي بدونه لا يكون ثمة حفظ للثقافة واحياء ، إذ ما الفائدة من العمل لحماية الثقافة العربية ، إذا لم نكن ندري ما هي هذه الثقافة ؟

وبعد أن تتضح الغاية ويتعين الهدف بالكشف عن جوهر الثقافة العربية ، يُعمد إلى الطرق الفعالة لبثها في نفوس أبناء الأمة وصيانتها من الفساد . وهنا يبرز المبدأ الثالث في العمل، وهو، كالمبدأين السابقين، منبثق من روح الجهاد القومي الأكبر. هذا المبدأ الثالث هو " الشمول ". فكما أن الجهاد القومي الصحيح يرتكز على عموم أفراد الشعب ، ويصدر من صميم حياتهم جميعاً، ولا ينحصر في طبقة دون طبقة ، أو في فرد دون جماعة ، كذلك الجهاد الثقافي لا يتم إلا إذا امتزج بروح كل فرد من أفراد الأمة ، وكيّف أعماله وتصرفاته ، بل حياته بكاملها . فهو في الأم تربي طفلها وتنشئ نفسه على حب لغته وثقافته ، وهو في المعلم يحيي أدب الأمة وتراثها الخالد في نفوس طلبته ، وهو في الأديب يستمد من حياة الأمة رسالتها و يرسم أمامها مثلها العليا، وهو في الموظف يجند قوى الدولة للدفاع عن حياتها الروحية والعقلية ، وهو في الفلاح والتاجر، في العامل والطبيب، في الكبير والصغير، في الغني والفقير، في كل نفس حية من نفوس الأمة ، وكل نفس من أنفاسها.

هذا الشمول في الجهاد هو ما يجب أن تسعى إليه الأمة العربية لإحياء ثقافتها وحفظها من الأهواء . وطبيعي أن أفراد الأمة لا يهبون هذه الهبة الموحدة الشاملة للدفاع عن ثقافتهم ، إلا إذا كانوا يفهمونها حق الفهم، ويتصلون بها اتصال الروح بالروح . ولذلك وجب، قبل أن تجمع نفوس الأمة على حماية ، الثقافة العربية ، أن تشيع هذه الثقافة في تلك النفوس جميعاً وتنصهر في بوتقتها وتعمر كل ناحية من نواحيها . بل ان هذا الوعي الصحيح الشامل للثقافة هو نفسه أفضل وسيلة لحمايتها والذود عنها . إذ انها متى اختلطت بنا أصبح الدفاع عنها دفاعاً عن نفوسنا، وذباً عما هو أعز من حياتنا . أما إذا ظل فهمها مقصوراً على فئة قليلة مترفعة ، ولم يتسرب إلى جمهرة الشعب ولم يسر في عروقهم ، فمن الصعب حفظها، ومن العبث العمل لتأمين سلامتها.

على أن هذا الشمول لا يتم ، ولا يؤتي أكله ، ما لم تتضافر جهود أبناء الأمة وتنتظم . فالجهود المتفرقة- مهما غزرت- لا تقوم بالأعمال العظيمة . بل قد يعاكس بعضها بعضاً ويؤخر واحدها مسير الآخر. ولذلك وجب على المختصين بكل ناحية من نواحي هذه الثقافة أن يلموا شعثهم ، ويوحدوا عملهم ، ويرفعوا لواء جهادهم متماسكين متصافين . وقد بدت طلائع هذا التنظيم في ما نشاهده حولنا من جمعيات علمية ومجامع أدبية ، ومن نقابات وحلقات وروابط ، ولكن هذه الطلائع لا تزال ضئيلة العدد مضطربة السير، ولايزال بيننا وبين قلب الحركة التنظيمية مدى واسع وشوط بعيد .

من أجل ذلك أشرت إشارة خاصة إلى قسط الحكومة الوافر في العمل الثقافي . فالحكومة أعظم قوة لتنظيم هذا العمل وربط أجزائه وتوحيد القائمين به . فهي بفضل ما تملك من مال ورجال ، ومن سلطة ونفوذ ، تستطيع أن تسيطر على منظمات التعليم وعلى سواها من مجاري العلم والأدب كالصحافة ، والاذاعة اللاسلكية ، والجمعيات الثقافية ، فتنفخ فيها روحاً واحدة وتضاعف جهودها وإنتاجها . ولست أقصد بذلك أن أنتقص قيمة العمل الشعبي الحر، وأن أضع العبء كله على عاتق الحكومة ، فهذا مما يخمد روح العمل ويقطع الصلات الحية التي تربطه بقلوب الشعب . وإنما أريد أن ألفت النظر

إلى المجال الواسع الذي ينفسح أمام الحكومة من هذه الناحية ، والذي نرى حكومات الغرب اليوم تسعى إلى التسابق إليه والتوغل فيه كي تؤمن التنظيم المطلوب لإحياء الثقافة القومية وحفظها . وإذا كانت الأمم الغربية قد وجدت حاجة إلى مثل هذه الفعالية الحكومية، فإن الحاجة عندنا أشد وأعظم ، لكثرة العناصر الغريبة التي تتلاعب بثقافتنا، والقوى المختلفة التي تتقاسمها. فإذا لم تردع هذه القوى وتضبط تلك العناصر بتنظيم قوي شامل، اختلت ثقافتنا وعصفت بها أيدي الزمان .

هذا التنظيم المتين الواسع - هذا التنظيم الذي بدأنا نشعر بضرورته ونقدر أهميته في شتى مناحي حياتنا - هو الأساس الرابع الذي يجب أن يقوم عليه بناؤنا الثقافي الجديد .

بقي أمر أخير : هو أن العمل لحفظ الثقافة وصيانتها لا يستحق أن يدعى جهاداً إلا إذا كان كل فرد من القائمين به يشعر أنه إنما يؤدي رسالة في الحياة ، هي عنده مقام الحياة نفسها أو أرفع ، وأنه ليس مأجوراً للقيام بعمل معين ، بل جندياً من جنود الأمة مضحياً بكل شيء في سبيل نهضتها وعزتها. وقد دلت اختبارات الأمم السالفة أن الجند المأجور لا يحمي وطناً ، ولا يقي شعباً من الهلاك ، وان أمل الأمة الوحيد هو في الجنود الذين يحاربون عن عقيدة وايمان لمثل عليا في الحياة . وما من أمة في المستقبل يمكنها أن تفوز في ميدان القوميات المتطاحنة إلا إذا كانت كلها- برجالها ونسائها، بكبارها وصغارها- جيشاً مجنداً يعمل كل فرد منه في ناحية من نواحي الحياة القومية ، و!ذل نفسه بصدق وعزيمة واخلاص .

بين هؤلاء الجنود، يتميز فريق خاص له في الجهاد الثقافي النصيب الأوفر والقسط الأوفى . هو فريق القائمين بأمر الثقافة بشتى مظاهرها : المعلمون في المدارس ، والأدباء والعلماء والفلاسفة ، والمسيطرون على المنظمات الثقافية الحكومية . هؤلاء هم قادة هذا الجهاد، ورافعو لوائه ، ومديرو دفته . هؤلاء هم الذين يجب أن يمثلوا بشخصيتهم ، وأعمالهم ، وحياتهم ، الاخلاص والاندفاع في سبيل المثل العليا ، والعمل الجاد ليل نهار لتحقيقها . واني لأخشى أن هؤلاء القادة عندنا لم يتوصلوا بعد إلى

تأدية هذه الرسالة الرفيعة تأدية صحيحة . ألا تراهم يقومون بعملهم بشكل " ميكانيكي " ، فلا ينفخون فيه روحاً ولا يكسونه معنى وحياة ؟ أليسوا منقسمين على أنفسهم تتوازعهم الأطماع الشخصية والمنافسات المحلية ؟ ألست تجد كلا منهم يسعى وراء المادة الدنيئة أو الجاه الفارغ ، وينحط أحياناً إلى أسفل دركات الحسد والبغضاء، بدلاً من أن يرتفع إلى مراتب النقاء والإخلاص ونكران الذات؟

هذا، فيما أعتقد، هو أضعف نقطة في جهادنا . فإذا لم يشعر معلمونا وأدباؤنا ومسيّرو أمور المعارف عندنا، انهم ليسوا موظفين يتقاضون رواتب ، ويتنازعون على مراكز، بل حملة رسالة، وأصحاب دعوة قد بذلوا لها حياتهم ، وباعوا من أجلها نفوسهم - إذا لم يتم لنا هذا، ظل عملنا الثقافي عملاً آلياً مضطرباً ، وتدنى عن المقصود الرفيع من الجهاد تدنياً عظيماً .

تلك هي الأسس الخمسة التي يجب أن نقيم عليها جهادنا الثقافي : الاستقلال في ادارة شؤوننا الثقافية ، ووضوح الغاية ، وشمول الوعي والعمل ، واحكام التنظيم، والاخلاص في تأدية الرسالة. وهي كلها مرتبطة أوثق الارتباط بالجهاد القومي الأوسع ومستمدة منه . فهل لقادة الرأي والعمل بيننا أن يرفعوا علم هذا الجهاد الثقافي عاليا وينظموا العناصر المشتركة فيه ؟ ان القوى المتطاحنة في العصر الحديث لا ترحم أمة أهملت روحها وتركت ثقافتها في يد الدهر عرضة للعواصف والأهواء . فعسى أن نتنبه للأخطار المحدقة بنا ونسعى لدرئها ، قبل أن تطغى علينا هذه القوى وتبيدنا في نزاعها وتطاحنها ، ونحن غافلون .

***

أزمة الروح

تجتاح البلاد العربية اليوم أزمات عنيفة تضيق عليها الخناق ، وتخمد حياتها أو تكاد . فأنّى التفت ضيق وارتباك ، وأعباء ثقيلة، وعقبات صعاب . هنا الأزمة السياسية التي استعصى أمرها، والتي لا تكاد تحل منها ناحية حتى تتعقد نواح ، ولا تتقدم نحو الانفراج خطوة إلا لتعود إلى الاختباط خطى ومراحل . وهناك الأزمة الاقتصادية التي يرتسم طيفها أمام كل عين، ويثور القلق منها في كل قلب ، ويتبادر حديثها إلى كل شفة ولسان . وهنالك الأزمة الاجتماعية الناتجة عن العراك بين القديم والجديد في العادات والتقاليد والأخلاق ، والأزمة الفكرية المتكوّنة من تصادم شتى الآراء والفكر والعقائد والنظريات .

على أن وراء هذه الأزمات كلها أزمة أخرى هي ، في نظري ، أعظم منها كلها خطراً وأعمق جذوراً : هي الأزمة الروحية . هي أزمة النفس ، لا أزمة الجسد والمادة . هي معضلة القلوب ، لا معضلة الجيوب . هي تراخي الهمة وخوّر العزم . هي غلبة اليأس على الأمل، وطغيان التشاؤم على التفاؤل . هي الحقد الذي يشتت الصفوف ، والحسد الذي يفرق بين القلوب. هي فقدان الثقة وضعف الايمان ، وايثار المصلحة الخاصة على النفع العام ، وزوال معنى الاخلاص ، والتضحية ، وانكار الذات .

أجل ! ان أساس ضعفنا ومصدر علتنا هو هذه الأزمة الروحية الخانقة التي نتخبط فيها. وجميع الأزمات الأخرى- على ثقل وطأتها واستعصاء مشاكلها- ما كانت لتزعزع أسس حياتنا وتقضي على استقرارنا وعلى منابت القوة والأمل فينا ، لولا الأزمة الروحية التي أخمدت قوى نفوسنا، وركمت أدران المادة على منابع الفيض الروحي في شخصيتنا الفردية والاجتماعية فطمرتها.

دوننا الأزمة الاقتصادية مثلاً . ليس لأحد أن ينكر تعقدها أو يستهين بشأنها ، فخطرها عظيم وعبئها ثقيل .

ولكن ما أخف تأثيرها في النفس المؤمنة المجاهدة التي تهزأ بالمادة في سبيل تحقيق أهدافها ، وتكتفي بما يقوم بأودها - وما أقله لمثل هذه النفس !- لتحصر جهودها فى خدمة مبدأ سام أو مثل أعلى . وان نظرة واحدة على سير الرجال الذين كان لهم شان في تقدم أمتهم أو خدمة الإنسانية لكافية لتظهر أن المصاعب المادية لم تكن لتقف حجر عثرة في طريقهم ، بل انهم ثبتوا عليها وغلبوها بفضل قوى العزم والتضحية والايمان وسواها من القوى الروحية التي كانت تطفح بها نفوسهم ، والتي فقدناها نحن العرب اليوم ، فنشأ عن فقدنا إياها هذه الأزمة الروحية العميقة التي نعانيها.

***

على أن بين هذه الأزمة الروحية ، والأزمة الاقتصادية المتأثرة بها ، وجوهاً من الشبه عديدة يحسن بنا أن نلاحظها كي يتيسر لنا فهم أسباب أزمتنا الروحية ونتائجها . فكما أن المعضلة الاقتصادية التي نشكو منها فى هذه البلاد هي جزء من المعضلة الاقتصادية العالمية التي تتخبط بها بلاد الأرض اجمع ، كذلك ليست أزمتنا الروحية إلا قسماً من الأزمة العامة التي خيمت فوق كل قطر، وانتشرت بين كل فئة من الناس في هذا العصر . هي تيار قوي يجتاحنا من مختلف الجهات ، ويجرف كل ما كنا نتمسك به من عقائد وتقاليد ، ومن مذاهب ومبادىء . هي عاصفة هوجاء تهب على ما وصل إلينا من تراث ماضينا فتقتلعه من جذوره ، وتفصم العرى التي تربطنا بأجدادنا ، فتذهب بما تحدر إلينا منهم من عزة واباء وحلم وكرم ، ومن رغبة في الحق وزهد عن الباطل ، ومن ثروة عقلية وأدبية وروحية هي جوهر ما أنتجته الأمة العربية وما قدمته للثقافة والمدنية .

وكما أنه لا يمكننا في عالمنا الصغير أن نؤثر في مجرى الأزمة الاقتصادية العالمية ، ونحوله عنا ، كذلك ليس باستطاعتنا أن نصد قوى الأزمة الروحية التي تجتاحنا من كل صوب وناحية . على أنه بوسعنا أن نقوي كياننا الاقتصادي الخاص بحيث نصبح أقدر على مجابهة المشاكل الاقتصادية العالمية ، فتخف وطأتها علينا ويقل تأثيرنا في حياتنا . بوسعنا أن نهتم بزراعتنا، ونعنى بصناعتنا، ونحافظ على تجارتنا ، فنقوي مناعتنا الداخلية حتى نصمد

تجاه العوامل الجبارة التي تهاجمنا من الغرب . لكنك ترانا ، بدلاً من هذا ، نهمل منابع ثروتنا ومصادر غنانا ، فنزداد ضعفاً على ضعف ، ونضيف الى الأزمة العامة مشكلتنا الاقتصادية الموضعية الخاصة . وشبيه بذلك أمر حياتنا الروحية . فعوضاً من أن نستغل ثروتنا الروحية ونقوي كياننا النفسي لنجابه العوامل الهدامة التي تحيط بنا من كل جهة ، تجدنا نبدد مواردنا الروحية تبديداً ، فتتلاشى مناعتنا الداخلية ونخر صرعى أمام حوادث الدهر وصروف الزمان.

فأسباب أزمتنا الروحية هي اذن ، كأسباب الأزمة الاقتصادية ، على نوعين : منها ماهو عام وشامل للعالم أجمع وليس لنا عليه أدنى قدرة أو تأثير ، ومنها ما هو خاص بنا متوقف علينا. وهذا النوع الثاني ، الممكن اصلاحه وتلافيه ، هو الذي يجب أن نهتم به وهو الذي يدور عليه حديثنا الآن .

***

فما هي تلك العوامل الخاصة التي ما زالت تزيد أزمتنا الروحية استفحالاً حتى جرّتنا الى ما نحن عليه من فقر روحي وانحطاط نفسي ؟ هنا أيضاً نلاحظ أوجه الشبه بين أزمة الروح وأزمة المادة .

لو سألنا أحد رجال الاقتصاد عن الأسباب الموضعية للأزمة المالية في سوريا مثلاً لبدأ بالقول ان بلادنا هذه ضيقة الحدود محصورة الجوانب والأطراف ، قد أحيطت بالحواجز والسدود الاصطناعية ، فضيقت مجال العمل وقيدت قوى الإنتاج . فالصلات الاقتصادية الصحيحة بيننا وبين بقية البلاد العربية قد انقطعت ، أو كادت . ومهما جد أفرادنا وجماعاتنا تظل جهودهم محصورة ضمن نطاق صغير لا تتعداه ، فلا تغني أنفسهم والبلاد إلا قليلا .

وإذا كان محيطنا الاقتصادي ضيقاً محدوداً ، فما أضيق محيطنا الروحي ! أترانا نتريث أحياناً في تيار حياتنا اليومية الجارف لنتساءل عن ضيق عالمنا الروحي أو اتساعه ؟ يقيناً ان عالم أكثرنا لا يتعدى في أغلب الأحوال حدود أنفسهم الضيقة . نحن نهتم بغاياتنا الشخصية وأهوائنا الخاصة ، كأن العالم بأسر خلق لنا

ويجب أن يسيّر من أجلنا . نحلم بغنى نقتنيه أو جاه نكسبه أو عز نناله . وان اتسعت بعد ذلك دائرة اهتمامنا فلكي تشمل أسرتنا وما ورثت من نسب وما تحتل من مقام ، أو بلدتنا وما تثور بها من مشاحنات وانقسامات ، ومن مناورات وعصبيات. وقد يتعدى اهتمامنا هذه وتلك إلى الوطن بأسره ، فنتحدث عن أحواله ومشاكله ، وماضيه وحاضره ومستقبله ، لكن نظرتنا تظل ضيقة وعالمنا يبقى محصوراً . ذلك أن أحدنا لا يستطيع في كل ما يقول ويفعل أن يتجرد عن غاياته الخاصة ، بل يظل أبداً متطلعاً إلى الوظيفة التي سيعتليها أو الجاه الذي سيحرزه أو الفوز الذي ستصيبه جماعته . أما النظرة الواسعة التي تتناول القضايا من وجهتها العامة ، اما الهدف البعيد الذي لا يقف عند الغايات الصغرى والروابط الشخصية ، فقلما نرى لهما أثراً في محيطنا الروحي الحاضر . فعالمنا الروحي اذن ضيّق بمعنيين : أولهما اننا قليلاً ما نهتم بما هو بعيد عن أنفسنا ، والثاني انه حتى عندما تتسع دائرة اهتمامنا تظل قوانا الروحية ضيقة محدودة لأننا نبذل هذا الاهتمام من خلال أهوائنا الخاصة وغاياتنا الصغرى .

حقاً ان قيمة الإنسان وثقافته وسعادته كلها تتوقف على اتساع عالمه الروحي . والرجل الأمثل هو الذي يشمل عالمه الكون بأسره والبشر بكاملهم . لا بل هو الذي يشق حجب الأرض والسماء فينفذ ببصره إلى ما وراء الكون، وينطلق على أجنحة الخيال فيمتد نظره على جميع عوالم الطبيعة والإنسان . هو الذي لا يكفيه الحاضر بمشاكله ومشاغله ، وإنما يتبنى الماضي بميراثه وآلامه والمستقبل بآماله وأحلامه . فهو بحق ابن العالم بأسره والزمان بكامله .

على أن الأحوال التي تمر بها البلاد العربية خاصة وبلاد العالم عامة تدعونا إلى أن نوجه جميع جهودنا واهتمامنا إلى وطننا العربي الذي يحتاج اليوم إلى كل ما في قلوبنا من ايمان ، وفي نفوسنا من جد وإخلاص ، وفي عقولنا من علم وذكاء ، لينهض ويحتل مكانه بين الأمم . فلنوسع عالمنا الروحي حتى يضم هذا الوطن ضماً صحيحاً ، ويتحد به اتحاداً لا تشوبه غاية فردية أو يضعفه هدف شخصي .

ويحدثنا رجال المال وأرباب الأعمال ان من الأسباب الخاصة لأزمتنا الاقتصادية فقر بلادنا وقلة مواردها . وهذا القول صحيح ، لكن إلى حد. والأجدر أن نقول ان في بلادنا موارد كثيرة لم نحسن بعد استغلالها ، وان أزمتنا الاقتصادية ناشئة عن اهمالنا هذه الموارد لا عن عدم وجودها. وما يصدق عن الأزمة الاقتصادية يصدق إلى حد أبعد عن الأزمة الروحية . ففي قلب كل منا ينابيع روحية قد شحت مياهها لما تراكم فوقها من الأقذار والأوساخ ، وموارد نفسية قد طغت عليها أدران المادة فلم يعد يتسرب منها إلى حياتنا الخارجية الا قطرات ضئيلة لا تغني ولا تفيد . ولو أنا عنينا بأمر هذه المنابع الروحية العناية الصحيحة لفاضت على نفوسنا بالطمأنينة والاستقرار، ولذهبت بما نعانيه من شدة واضطراب . ولكم تعتريني الدهشة ويستولي عليّ العجب عندما اقرأ في صحفنا ومجلاتنا ، أو أسمع من منابر محافلنا ، ان هناك فرقاً كبيراً- بل هوة ساحقة- بين الشرق والغرب ، لأن الاول روحي والثاني مادي . فهل يصح هذا فينا نحن العرب الشرقيين اليوم؟ هل نحن منصرفون حقاً إلى الأمور الروحية في الحياة ؟ لا ! وإنما الحق أن نقول ان مدنيات العصور القديمة التي زهت في الشرق أدت رسالة روحية ، وان مدنية العصر الحديث التي ازدهرت في الغرب لا تزال في شكلها الطاغي مادية . ولكن هذه المدنية الحديثة أخذت تجتاح الشرق أيضاً ، فلم تبق لروحيته أثراً يذكر، وطما سيل المادة عليه فغمر جميع نواحي الحياة فيه . انظر في أية ناحية من حياتنا شئت تر انها متشربة بالمادة متعلقة بأدرانها ، وما كانت المادة يوما من الأيام أساساً للحياة الصحيحة أو غذاء للغبطة النفسية . زواجنا زواج مادي : نصبو في زواجنا إلى البيوت المزينة والألبسة المزركشة والحجارة الكريمة ، لا إلى القلوب المفعمة بالحب والتضحية والنفوس الطافحة بالصدق والاخلاص . علمنا علم مادي : ننشد من وراء علمنا المال الوافر والتجارة الرابحة والوظيفة العالية ، لا الثقافة التي تنعش العقول والخدمة القومية التي ترتاح إليها القلوب . ديننا دين مادي : نعبد القوة العليا في الكون بالأبنية الجبارة والمذابح الفخمة والمباخر المذهبة ، لا بعواطف الفؤاد الملتهبة وخشوع النفس المهيب . سرورنا سرور مادي : نسعى إليه بالأجسام ، لا بالقلوب والأرواح . جمالنا جمال مادي :

ننشده في الجسد البض والقامة الهيفاء ، لا بالنفس السامية والقلب النبيل . فهل من عجب بعد هذا إذا طمت أدران المادة على ينابيع نفوسنا ، فمنعت عنا ما يفيض منها من قوة وأمان، وسعادة وصفاء ؟ وهل من عجب إذا استعصت أزمتنا الروحية بعد أن ضعفت مناعتنا وتراخت نفوسنا ؟

***

ويقال ان من الأسباب الموضعية لأزمتنا الاقتصادية اضطراب الأحوال وعدم الاستقرار وتعدد الأحزاب وكثرة الانقسامات والمنازعات . والحق ، ان هذه البلاد قد مضى عليها زمن وهي كل يوم في حال :

كريشة في مهب الريح طائرة لاتستقرعلى حال من القلق

وقد أثر هذا الاضطراب في حياتها الاقتصادية ، وكان من أكبر، العوامل في استعصاء الأزمة المالية القابضة عليها . وما أصدق ذلك عن أزمتنا الروحية أيضاً ! ما أشد اضطراب حياتنا الروحية وأعظم ارتباكها ! انها منقسمة القوى ، مشتتة النزعات . مثلنا كمثل مركب في بحر هائج قد ضل سبيله وتحطمت دفته : تتقاذفه الأمواج وتتلاعب به الرياح ، فيندفع ساعة إلى هنا وساعة إلى هناك ، إلى أن تأتي الموجة العظمى التي تقلبه رأساً على عقب وتمزقه تمزيقاً ! وهكذا نحن في بحر هذه الحياة تتجاذبنا ميول مختلفة وغايات متضاربة فنقضي قسطا من العيش نندفع حيناً وراء هذا وحيناً وراء تلك إلى أن تهب العاصفة الكبرى التي تجتثنا من جذورنا . وكما أنه لا أمل للمركب بالنجاة إلا بالدفة التي تعين له وجهة مسيره، كذلك نحن لا أمل لنا بالفوز في هذه الحياة إلا إذا كانت لنا غاية سامية نسعى وراءها ، ومثل عليا نلقي عليها مرساتنا ، وهدف أعظم منا نسخر كل ما في نفسنا من قوى في سبيل تحقيقه ونشر لوائه بين الناس .

هذا الارتباط الوثيق بمثل أعلى ، هذه القوة التي تؤلف مدارك النفس ومشاعرها، وتوجهها جميعاً إلى غاية واحدة ، وتصهر كل ما ينبعث فيها من أهواء ورغبات في بوتقة الرغبة الوحيدة الكاملة التي لا تتبدل ولا تتزعزع ، هذه هي : " العقيدة" . أرأيت رجلاً نردري

ميوله الشخصية واهواءه الفردية في سبيل ما يعتقد انه الحق ؟ أسمعت برجل يضحي بماله وراحته - بل بحياته- لنشر لواء الحرية والعدل ؟ أأدهشك شخص يحتقر جميع نعم الدنيا للعمل في خدمة بلاده ونهضة أمته ؟ هذا، وذاك ، وذلك ، هم رجال " العقيدة " . هم قوَمة الله على أرضه، وأوصياؤه على شعبه . هم قبس من النور العلوي يشع على الناس لينير الظلمات التي تكتنفهم ويهديهم سواء السبيل .

صاحب العقيدة هو العالم الذي يقضي حياته منزوياً في مختبره يصارع جراثيم الأمراض أو يستكشف أسرار الطبيعة لا يبتغي من وراء ذلك أجراً ولا شكوراً . هو الوطني الذي يقف نفسه على خدمة أبناء قومه فيقدم ماله وقواه الجسدية والعقلية قرباناً على مذبحهم . هو المصلح الاجتماعي الذي يهوله ما يرزح اخوانه في البشرية تحت أعبائه من ظلم وعسف ، ومن جهل وفقر، فيرمي بأهدافه الصغرى جانبا ويسعى بكل ما أوتيه من قوة لمحاربة هذه الأمراض الاجتماعية التي هي أشد فتكاً بالإنسانية من الأوبئة الطبيعية . هو المتصوف العابد الذي ينزه نفسه عن الغايات الشخصية والرغبات المادية ، ويفني شخصيته الصغرى ليبقى في شخصية الكون الكبرى . هو النبي الذي ترتفع عنده العقيدة إلى أعلى مستواها وتبلغ أعظم قوتها فتستولي على عقله وقلبه ونفسه وتدفعها جميعاً إلى هدف واحد : هو خير الإنسانية وسعادتها .

ولا يخيل إلى أحد ان العقيدة هزة عاطفية تحرك شعور الإنسان آناً من الزمن ثم لا تلبث ثورتها أن تهدأ ونارها ان تخمد . لا! ان العاطفة التي لا ترتكز على أساس الفكر المتين والتي تتلاشى أمام رياح الدهر العاصفة ليست من العقيدة في شيء . وإنما العقيدة فكرة تتسرب إلى النفس عن طريق العقل ، ولا يتوصل إليها الإنسان إلا بعد التحليل والتمحيص والدرس والاختبار فلا يفتأ يقلبها ويتدبرها حتى يعتقد بها اعتقاداً داخلياً حياً ، وحينذاك يغذيها بعاطفته ويقويها بإيمانه ، فيكون لها صلابة الفكر المتين واندفاع العاطفة المتدفقة . وهذا التوفيق الأمثل بين العقل والنفس ، بين الفكر والعاطفة ، هو الذي يمد العقيدة بقوتها ويجعل لها ذلك الأثر البليغ في حياة الأفراد والشعوب .

وصاحب العقيدة لا يخشى المصاعب ولا يهاب الأعداء . فهو يستمد من مثله الأعلى قوة لا تفتر وحياة لا تنضب . هو الذي إذا تكلم ، تكلم كمن له سلطان . هر! الذي يقول لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ، ولايكون شيء غير ممكن لديه . هو الذي إذا تضافرت عليه المصاعب، وتألب على مخاصمته الناس ، وقام الذين لم يفهموا رسالته يغرونه بالتنازل عن مبدأه والانصراف إلى ما ينصرف إليه بقية القوم من أغراض هذه الحياة ، صد اليأس عن أن يتسرب إلى نفسه ، واستمد من مصاعبه ذاتها قوة على قوة ، وسار إلى رسالته يؤديها دون نكول أو تردد. هو الذي نال الحرية العظمى ، الحرية الحقيقية، الحرية التي لا تعرف قيداً ولا رباطاً ، لأنه تحرر من جميع القيود الشخصية والروابط المادية ليكون عبداً لما هو أعظم من نفسه الصغيرة وأوسع من شخصيته الضيقة. أجل ! ان الحرية الحقيقية لا تكون إلا بهذا المعنى من العبودية . فبقدر ما يكون المرء عبداً لما هو أعظم منه، يصبح حراً في نفسه ، وبقدر ما يفني شخصيته في ما هو أوسع منها ، يبقى البقاء الحقيقي الذي لا تشوبه شائبة ولا يعتريه وهن. وصاحب العقيدة هو الذي يتقبل هذا النوع من العبودية لينال الحرية الحقة ، والذي يفنى هذا الضرب من الفناء ليبقى البقاء الصحيح .

هذه هي العقيدة : تلك القوة التي تعوزنا في هذا الدور من حياتنا القومية ، والتي بدونها لا يمكننا ان نجابه ما يحيط بنا من أزمة روحية . نظرة واحدة إلى أية ناحية من نواحي حياتنا القومية : سياسية أم اقتصادية ، اجتماعية أم عقلية ، تظهرنا جميعاً رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً ، مقيدين بغاياتنا الضيقة ، مرتبطين بأهوائنا الفردية ، متكالبين على المادة ، متنازعين على نعم الحياة الصغرى . فلا عجب اذن إذا صارت أحوالنا من سيء إلى أسوأ ، بل لا عجب إذا ضعفت شخصيات قادتنا وزعمائنا وانحطت عن المستوى الذي يجب أن تحلق فيه . ولا عجب إذا انتشر الاستياء ، وعم اليأس ، وضاق ذرع الناس بالحياة ، فلو كان لنا مال الأرض وعلم السماء ولم تكن لنا عقيدة صحيحة ، فلن ننال الحرية ، ولن نتذوق الكرامة . وقديماً قيل في الكتب : " ان كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنجاً يرن "، واليوم ينظر كل منا في

نفسه، وفي ما حوله ، فلا يجد مفراً من القول : " ان كان لي كل ما في هذه الحياة من نعم ولم تكن لي عقيدة استثمر هذه النعم في سبيلها ، فحياتي فارغة من المعنى خالية من الجوهر، ولن أستطع أن أحظى باستقرار لنفسي أو أن أكون نافعاً لأمتي وبلادي ".

***

ما أكثر ما سمعنا ونسمع ان المادة هي أساس الحياة ، وان الحديث عن النفس والروح ضرب من العبث أو نوع من الهراء . وما أكثر من ستعلو شفاههم ابتسامة الشك والهزء عند قراءتهم هذا الفصل ومتابعتهم حديث " الأزمة الروحية " ، لاعتقادهم ان معضلة أمتهم الكبرى هي المشكلة السياسية أو الأزمة الاقتصادية . فمن الواجب ان أعيد هنا ما ذكرته قبلا من أنني من أقل الناس احتقاراً لهاتين المشكلتين وسواهما من مشاكلنا العامة ، ومن أشدهم إحساساً بها وتقديراً لها . ولكني أريد أن أمكن في نفسي وفي نفس كل عربي تهمه نهضة أمته وحياتها ، ان جميع هذه الأزمات ما كانت لتبلغ ما بلغته من شدة وتفاقم لولا ما هوينا إليه من ضعف روحي وتضعضع نفسي، وان على العاملين الصادقين في الميدان القومي ان لا يقصروا جهودهم على معالجة هذه الأزمات ، بل ان ينصرفوا، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، إلى احياء العقول ، وتقوية النفوس ، وتنقية الأرواح والقلوب . عليهم أن يوسعوا أفقنا الروحي حتى يشمل وطننا بكامله فهماً وعملاً ، وأن يستغلوا ما في نفوسنا من قوى روحية تستطيع - إذا أحسن استثمارها- أن تحرك الجبال، وأن يدربوا فتيان الأمة وفتياتها على أن يتوجهوا بأنظارهم إلى عمل أعظم من أنفسهم يقومون به ويقفون كل ما لديهم عليه ، وبكلمة أخرى ، على أن يكونوا بحق : خدمة فكرة، وأصحاب "عقيدة".

كان ثيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة يبتهل إلى الله قائلاً : " اللهم انني لا أسألك حملاً خفيفاً ، ولكنني أسألك ظهراً قوياً ". ونحن العرب ، الذين أحاطت بنا المشاكل وأرهقتنا الأعباء، لا نطلب تخفيفها أو أزالتها - لأن التخفيف والإزالة الحقيقيين لا يكونان بقوة خارجية - بل نطلب ظهوراً قوية تستطع احتمالها ، ونفوساً متينة

وأرواحاً جبارة تستطع بذاتها أن تتغلب عليها وتسودها سيادة تامة :

والحق للعزم، والأرواح ان قويت

سادت وان ضعفت حلت بها الغِيَر.

الجهاد الأكبر

كان النبي العربي الكريم يقول عند الرجوع من الحرب: " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس " . قول يفيض حكمة وعبرة ، ويصدق على كل أمة تجاهد جهاداً صحيحاً ، وترمي إلى الغايات المثلى في الحياة . وما أصدقه على الأمة العربية خاصة ، في هذا الدور الخطر من تاريخها ، وهي تهب من رقاد طويل عميق وتنزع إلى أهداف بعيدة ونوع من الحياة جديد . نراها تتحفز للنهوض ، وتجاهد في شتى الميادين ، ناشدة الحرية والاستقلال والوحدة ، عاملة على أن تؤمن لنفسها حياة عزيزة مصونة ، باذلة فى سبيل ذلك ما ادخرته على مر العصور من قوى مادية وروحية لم يتكشف بعد منها إلا القليل . هذا الجهاد السياسي الخارجي، وما يماشيه من جهاد مادي اقتصادي ، يقوى ويتسع يوماً بعد يوم ، ويحمل الناظر إليه والمتتبع سيره على الايمان به والتطلع بثقة واطمئنان إلى نجاحه المضمون . غير انه - بالرغم من خطورته ، ومن ضرورته القصوى لحياتنا الحاضرة والمقبلة - لا يتم إلا إذا - رافقه جهاد آخر أشد وأعمق: جهاد داخلي نفسي . فما هو إلا كتلك الحرب التي ذكرها النبي العربي ، جهاد أصغر إذا قورن بجهاد النفس: الجهاد الأكبر !

أجل ! ان أمام النفس العربية نضالاً داخلياً يفوق نضالها الخارجي عظمة وخطورة . ذلك ان غايته أبعد من غاية النضال الخارجي وأوسع . فهو يرمي إلى تحرير النفس العربية تحرراً تاماً والنهوض بها إلى مستواها الارفع وكيانها الأمثل . وما الجهاد السياسي إلا وسيلة لتلك الغاية البعيدة : فإذا ما عمل على فك القيود الخارجية التي تكبل الأمة ، فما ذلك إلا ليفسح أمامها المجال للتحرر والنمو والتقدم المستمر في الرقي الحقيقي. ويخطىء من يظن ان هذا النضال الخارجي غاية في نفسه ، او انه يضمن وحده سعادة الأمة وحريتها الكاملة . فلكم من أمة قد تحررت من قيودها الخارجية ولا تزال ترسف في قيود نفسية أشد منها وأوثق ، ولا يزال أمامها

ميدان واسع للجهاد الداخلي قبل أن تحرر نفسها تحريراً تاماً وتحقق غايتها الكبرى .

ولنلاحظ فوق ذلك ان هذا الجهاد النفسي الداخلي ، مع كونه أبعد غاية وأوسع مدى من النضال السياسي الخارجي ، هو، بالوقت نفسه ، عامل جوهري فيه وشرط أساسي لضمان نجاحه. ذلك أن كفاح الأمة في الميدان السياسي لا يكتمل إلا بقدر ما تكون قد جنت من ثمار الجهاد النفسي، وما كسبت من الصفات التي يخلقها هذا الجهاد في روح الأمة وشخصيتها. وبكلمة أخرى : اننا لا ننال ما نصبو إليه من حرية واستقلال- ولا نتمتع بهما ان نلناهما- إلا بمقدار ما تكون قد نمت في نفوسنا قوى العزم ، والتضحية ، والايمان ، وسواها من الصفات الروحية : وكلها لا تحصل للنفس إلا بجهد دائم ، ونضال مستمر .

***

وبعد، فما هذا الجهاد الداخلي ، وإلى أي غاية يرمي؟

الجهاد الداخلي تفاعل مستمر واع بين قوى النفس المختلفة ، بتأثير عوامل المحيط الخارجي، تتجلى فيه هذه القوى وتنمو، وترتفع النفس إلى المستوى الذي تحقق فيه كيانها الأسمى . فهو عمل لا ينقطع مدى الحياة ، وغايته القصوى قلما تبلغها نفس من النفوس البشرية . على أنه بقدر ما تتقدم النفس من هذه الغاية ، وتتصف بالصفات التي تتكون في هذا التقدم ، يقاس الرقي الحقيقي، وتقدر قيمة الشخصية الإنسانية . ومع أن هذه الغاية بعيدة المنال ، والصفات التي تخلق عندها قليلاً ما تبرز على وجهها الأكمل، فإنه لزام علينا أن نصور هذه الصفات ونعين تلك الغاية ، كي يتضح لنا على ضوئها جوهر هذا الجهاد الداخلي وحقيقته .

أولى الصفات التي تميز النفس المجاهدة هي " النظام ". فالنفس التي اقتطفت ثمار جهادها هي تلك التي تنظمت قواها المختلفة وتناسقت عناصرها المتعددة ، دون تباين أو تنافر أو اضطراب . نظرة واحدة ينفذ بها كل منا إلى داخل نفسه كافية لتظهر ما فيها من فوضى واضطراب،

وتنازع وارتباك . فهي أشبه بالفناء وقد انتثرت عليه الحجارة المتنوعة ، منها بالبناء المنسجم الذي ينم عن شخصية مؤتلفة وكيان موحد . وما هذا الشلل الذي يصيب أكثر أعمالنا الخاصة والعامة ، وما هذا الاستياء، بل الشقاء، الذي يتصاعد دوماً من نفوسنا، سوى نتيجة للتنازع الداخلي المهلك بين قوانا النفسية المتنافرة المتباعدة .

يتجلى هذا النظام النفسي أولاً في التفكير. وكلنا يعلم ما للتفكير المنظم من مقام في حياة الإنسان ، ورقي الأمم . ولعلنا لا نخطىء إذا قلنا ان أصح مقياس لرقي أمة من الأمم هو تقدم هذا التفكير المنظم فيها وشيوعه بين أبنائها . هذا التفكير المتماسك الذي يتمشى بانتظام من المقدمات إلى النتائج، والذي يبغي الحق والحق وحده - هذا الاتساق العقلي الذي يسير على هدى وبصيرة بين مجاهل الفكر فيقتحمها دون خوف ولا وجل - هو العامل الأقوى في شق الطريق أمام البشرية ، وفي تسليطها على قوى الطبيعة وعناصر الكون . وان من يدرس المدنية الحديثة بإمعان ، وينفذ إلى أعماقها ، ليجد انها ، بجميع مظاهرها المادية والأدبية ، قائمة على هذا الأساس الفكري والقاعدة العقلية . فما أحوجنا نحن اليوم ، إذا أردنا أن نبني حياتنا على الأسس الصحيحة ، إلى اكتساب هذا النوع من التفكير بحيث يصبح قسماً منا ويصدر عن صميم كياننا. وما أحوج هذه النهضة القومية التي تتدفق من نفوسنا وتزخر بها حياتنا إلى أن تتخذ من العلم اساساً ، ومن التفكير المنظم دعامة وسنداً ، فتجمع إلى العاطفة المتوثبة الفكر الرشيد، وتتغذى من العقل والشعور معاً . وانه لمما يؤلمنا ويحز في نفوسنا ، ونحن نرقب حياتنا الثقافية والقومية، ان نرى اننا لا نزال بعيدين كل البعد عن هذه الغاية ، وأننا لم نسر في طريق الانتظام إلا خطى قصيرة ، ولم نمتلك منه سوى عناصره الأولى . راجع ما يلقى على منابرنا من خطب ، وما يجبر في جرائدنا ومجلاتنا من مقالات ، ترَ انها تكاد تكون خلواً من هذا الطابع العلمي ، وانها ملأى بالتعميمات المطلقة التي يصعب ضبطها ، وبالنتائج المرتبكة التي لم تستوف مقدماتها، وأنها لذلك لا تصلح أساساً لرأي صحيح أو عمل مثير . بل ترانا أسرع ما نكون هرباً من التفكير العلمي المنتظم ،

وذلك لأنه يتطلب جهداً عقلياً لم نتعود بذله : فكل فكر فيه يحتاج إلى ضبط، وكل خطرة تتطلب فحصاً ومراجعة وربطاً وثيقاً بما قبلها وما بعدها ، وكل رأي يجب أن يقلب على شتى وجوهه ، ويحك بمحك الاستنباط المنطقي من ناحية ، والاختبار العملي من ناحية أخرى . وهذا جميعه يستنزف جهداً عقلياً شديداً لا تقوى عليه إلا العقول المدربة والنفوس الجلدة. يضاف إلى ذلك اننا نخشى ، إذا سرنا في هذا الأسلوب العلمي إلى نهايته ، ان يكشف عما في نفوسنا من جهل وارتباك وظلام . فالنتائج تتطلب مقدمات قد لا نعرفها، والظواهر قد يكون لها بواطن خفيت عنا ، والمطقات قد تقيدها شروط نجهلها : فلنكتف اذن بترديد ما يخطر دون تدقيق أو تمحيص، ولنختبئ وراء عباراته المرنة وكلامه المبهم . وهكذا نجد أنفسنا ، هرباً مما يتطلب الأسلوب العلمي المنظم منا من جهد عقلي وخوفاً مما قد يكشف عنه من جهلنا ، نبتعد عنه ما استطعنا، ابتعادا خفياً باطناً ، لأنه قل بيننا من شعر بعد بهذا الأسلوب شعوراً واعياً ، وفهم شروطه ومتطلباته وطرق تطبيقه في حياتنا الحاضرة .

ومما يؤسف له ان مدارسنا ومعاهدنا قلما تعنى بتنمية قوى فتياننا وفتياتنا على هذا الأسلوب العلمي في التفكير ، بل تكتفي بأن تلقي عليهم معلومات متنافرة الألوان مختلفة المصادر، وتحشو أدمغتهم بها حشواً. وكلنا يعلم ان هذه المعلومات الخارجية لا تمس جوهر العقل، ولا تكيف قوى النفس، وقد تهب عليها أعاصير الدهر وصروف الزمان فتبددها تبديداً . أما ذلك الأسلوب الفكري الذي صورناه فيختلف عن المعلومات الخارجية المتفرقة في أنه لا يلقى من الخارج ، بل يجب أن ينمو من الداخل بنتيجة جهاد شديد متواصل قد يستمر سنين طوالاً. ولا يقدر شدة هذا الجهاد وما يتطلب من أناة وجلد إلا من خبره وعاناه وسلك طريقه الشاق الطويل. فليس اذن من قبيل المجاز، بل انه من جوهر الحقيقة ، ان نقول : ان الأسلوب المنظم في التفكير لا يتأتى إلا بنضال داخلي ، وانه من الصفات التي تكتسبها اكتساباً فرديا النفس المكافحة المجاهدة .

ويتبع النظام في التفكير النظام في العمل . وهنا أيضاً نرى هذه الصفة شرطاً أساسياً لنجاح أي عمل، خاصاً

كان أم عاماً . فلينظر كل منا في عمله ، وليدرس مقدار ما يسوده من دقة وانتظام ! أليس يجد الاستهتار والاهمال والفوضى بارزة في أكثر نواحيه ؟ ألي!س اننا تعودنا أن لا ننتظر من أي من نعامله ، سيداً كان أم مسوداً ، صاحب حرفة اختصاصية أم مهنة بسيطة، عملاً منتظماً في شكله وموعده ؟ ما أقل قيمة الوقت عندنا ! إذا لم- يتم العمل المطلوب منا اليوم، فلا بأس في أن يكون غداً، وإذا كان موعدنا الساعة ، فلا ضير علينا أن نأتي بعد ساعة ! وقد يطلب منا عمل بشكل ما، فنجعله بشكل آخر حسب ما يتفق أو يوحى إلينا . علة تظهر في أخص أمورنا: في حياتنا الشخصية ، ومشاكلنا العائلية ، وتتجلى بصورة واضحة في وظائفنا ومختلف مهننا . وقد يظن البعض منا أن مثل هذه الصفات الفردية قليلة الخطر لا تستحق كل هذا الاهتمام والنظر، لكن الواقع ان هذه الأمور الصغيرة في ظاهرها كبيرة في باطنها ومغزاها ، وان استقلالنا الحقيقي لا يتم إلا عندما يصبح عمل أحقر عامل من عمالنا ، وأصغر موظف من موظفينا منتظماً مضبوطاً . فإن تحقيق الغايات الكبرى لا يكون إلا في نهاية السير، وبعد بلوغ أول الأهداف وأدناها . ولا يعتقدن أحد ان هذا الانتظام هبة تنزل علينا من عل . إنما هو صفة نفسية لا تكتسب إلا بالجهاد الداخلي الذي يبدأ في أول العمر ويستمر مدى الحياة .

وليس عدم الانتظام هذا مقتصراً على أعمالنا الخاصة، بل يتعداه بشكل ظاهر إلى مشاريعنا العامة . فالذي ينظر في حالة مؤسساتنا ، وجمعياتنا ، وأحزابنا ، يلاحظ هذه الظاهرة بادية فى جميعها ، ويجد أن الرابطة التي يجب أن توحد الأفراد المشتركين في عمل من الأعمال مفقودة منها. فهم كالآلة التي يتحرك كل قسم من أقسامها حركته الخاصة دون ارتباط يحكمها ويوحدها. ولذا ترانا نفور فورات صاخبة متفرقة، فنجتمع بعضاً إلى بعض ونعمل معاً مدة من الزمن، ثم لا تلبث عوامل التفكك والتراخي أن توهن رابطنا وتفرق شملنا . حالة لم تبق خافية على أحد منا : نردد ذكرها ونطيل في وصفها في مجالسنا الخاصة ومحافلنا العامة ، ونهتف بأعلى صوتنا ناشدين النظام والتنظيم ، حتى أصبحت هاتان الكلمتان من أسرع الكلمات إلى شفاهنا ، وأكثرها ترديداً على ألسنتنا . ولكن الذي يخفى علينا في أكثر الأحيان هو ما أحاول

اظهاره فى كل كلمة من كلمات هذا الفصل من أن النظام ليس لباساً نرتديه ، أو مظهراً خارجيا نلقيه على أفرادنا وجماعاتنا ، بل هو ميزة نفسية داخلية لا تأتي إلا بالمران الطويل والجهاد النفسي المستديم . أرأيتم إلى هذه الأمم المنطمة في الغرب ، وهي تنطق بلسان واحد ، وتسير في صف واحد ، وتخضع بجسدها وعقلها وروحها لفكرة واحدة ؟ الحق انها ما كانت لتلتحم هذا الالتحام لولا أنها تدربت ، طوال أجيال متتابعة ، على التعاون والانتظام ، فاختلطا بدمها وروحها، وجاهد أفرادها جهاداً عنيفاً حتى استطاعوا أن يخضعوا أهواءهم الخاصة ومنازعهم الشخصية لرغبة الجماعة التى ينتظمون في سلكها. ولو أننا انتزعنا لأنفسنا من هذه الامم الغربية أعظم قادتها اقتداراً وأكثرهم معرفة ونفاذاً ، لما استطاعوا أن يخلقوا منا كتلة متراصة ، ما دمنا لم نظفر، كل منا في داخله ، بتلك الثمرة المباركة للجهاد النفسي المتواصل .

وقد يخطرللبعض منا ان هذا النظام يجرإلى قتل حرية الفرد، واضاعة مواهبه الشخصية. والجواب ان الأمر ان كان قد أصبح معضلة في الغرب ، فهو لا يزال في الشرق العربي بعيداً عن ذلك ، وأن عيبنا ليس في الزيادة والافراط ، بل في التفريط والنقصان . ناهيك بأن النظام الذي ننشد ليس القوة - التي تخنق الحياة ، بل هو سر القوة والجمال في الحياة . نظرة واحدة إلى مظاهر الطبيعة أو صور الإنسان ، ألسنا نرى النظام والتناسق مصدر كل عظمة وجمال فيها؟ أليست عظمة الطبيعة في انتظام عوالمها ، من اجرامها الكبرى إلى ذراتها الصغرى، انتظاماً محكماً بديعاً ؟ أليس جمال الموسيقى في تناسق الألحان ، وجوهر العلم في ترابط الأفكار، وصحة الجسم في تماسك الأعضاء ؟ فلنعتبر هذا كله ، ولنجتهد في أن ننمي في نفوسنا ذلك الانتظام المحكم الحي الذي هو أساس العظمة، والصحة ، والجمال .

***

وهكذا تكون هذه الصفة الأولى من صفات النفس المجاهدة مرتبطة بصفة ثانية هي ، كتلك ، ثمرة من ثمار التفاعل النفسي والجهاد الداخلي . هذه الصفة الثانية هي : " الحرية " . وهنا أيضاً لست أعني الحرية الخارجية التي

تبذل من فوق ، بل تلك التي تنمو من الداخل ، لا الحرية التي تفسح للمرء مجال الفكر والعمل بتحطيم اغلاله السياسية والاجتماعية فحسب ، بل تلك التي توحي إليه ماهية فكره وعمله بتفكيك قيوده العقلية والروحية ، لا الحرية التي تشق للناس سبل الوصول إلى ما يشتهون ، بل تلك التي تعلمهم ماذا يشتهون ، ذلك ان قيود النفس الداخلية - كما قلنا- لا تقل عن القيود الخارجية شدة وخطراً ، ولا تتم الحرية الحقيقية الكاملة إلا بتفكيكها.

في مقدمة هذه القيود الداخلية : الجهل . فالمرء يظل عبداً لما حوله ما دام يجهله ، فإذا عرفه وفهم أسبابه ونتائجه تحرر منه . وها ان تاريخ المدنية يظهر لنا بوضوح ان الإنسان بقي عبداً للطبيعة أجيالاً طوالاً ، إلى أن أخذ يكتشف أسرارها فانقادت له وأصبح لها سيداً ومسيراً . ولا يزال الإنسان إلى اليوم في مناطق عديدة من العالم عبداً للأمراض وما سواها من قوى محيطه لأنه يجهل نشوءها وأحوالها . فكل خطوة جديدة يخطوها العلم تحطم قيداً من قيود الإنسان وتحرره منه . فالمعرفة ، اذن ، وجه من وجوه الحرية ، بل هي الحرية الحقيقية نفسها، لأن الجهل هو أقوى قيد يوثق النفس ، ومنه تنشأ جميع القيود الأخرى . وتتضح لنا صفة المعرفة هذه إذا ذكرنا أننا لا نقصد بها تلك المعلومات الخارجية المتفرقة التي نطلي بها أشخاصنا ، بل نعني هيئة روحية تحصل للنفس من استمرار البحث ، واستخراج المجهول من المعلوم ، واشراق نور الحقيقة على الإنسان . لذلك نرى في العالم الحقيقي أفضل مثال للحرية الصحيحة ، الحرية الخالصة من الأوهام والخرافات ، ومن الأهواء الشخصية والنزعات الطائشة ، الحرية البريئة من الخوف والجبن ومن الطمع والأنانية ، الحرية التي لا يقيدها إلا شيء واحد ، تتعلق به فتضحي بكل ما سواه في سبيله . ذلك هو الحق الذي عنه قيل في الكتب : " تعرفون الحق، والحق يحرركم ". غير أن المعرفة التي تخلق هذا النوع من الحرية غاية بعيدة المنال، محرمة إلا على أولئك الذين يدفعون ثمنها غالياً بالجهاد النفسي الذي لا ينقطع ، والعمل الذي لا يمل ولا ينخذل .

ويصحب الجهل - وبالأحرى ينشأ عنه - قيد آخر، هو : " التعصب "، ذلك الذي يربطنا بفئة خاصة أو طائفة معينة ، ويفصل بيننا وبين الجماعات الأخرى بحواجز من

البغض والكره، والحسد والضغينة . وهو سبب هذه العصبيات المتنافرة والحزبيات المتناحرة التي تمزق جسم أمتنا العربية . فلقد ننال حريتنا السياسية ، ولكنها تبقى واهية الأساس، معرضة للزوال والانهيار، إذا لم تكن مدعومة بالتحرر الباطني من العواطف الهدامة الممزقة التي يبعثها التعصب في النفوس . ومن الخطأ أن نعتقد ان هذه العصبيات تزول بالوسائل الخارجية : كالقوانين التي تسنها الدولة ، أو الخطب والمقالات الصارخة التي نرسلها بين آن وآخر . إنما هي اغلال باطنية لا تحطم إلا بالتحرر الذي يسبغه على النفس جهادها الداخلي . ونحن اليوم أسرع ما نكون في حياتنا الخاصة والعامة إلى انكار التعصب وذم الحزبيات العائلية والطائفية والسياسية ، وإلى الدعوة إلى التسامح والأخوة والتضامن بين أبناء الوطن الواحد ، ولكن إذا خلا كل منا إلى نفسه ، وجد ان صياحه هذا يخرج من لسانه - وما خرج من اللسان ، على ما قال القدماء، لا يتعدى الآذان- وانه لا تزال في زوايا قلبه أغشية كثيفة من التعصب ، وحجب قاتمة من الحزبية ، تفسد عليه تفكيره وتزيف عمله . فإذا أردنا أن نزيل تلك الأغشية ونرفع هذه الحجب ، وجب علينا أن نحاسب أنفسنا محاسبة دقيقة ، وأن يقف واحدنا لنفسه بالمرصاد ، فيتفحص كل خطوة تمر في ذهنه، وكل كلمة تصدر من لسانه ، حتى إذا وجد فيها بقية من أدران التعصب وأعلاق التحزب، نفضها عنها، وعاد إلى عاطفته يصهرها بالإرادة القوية ، والوجدان الملتهب ، إلى أن تخلص وتنقى وتفيض طهراً وصفاء . ذلكم هو الجهاد !

ومن أثقل القيود الداخلية وأشدها وطأة قيد " المادة " . وليس ثمة ضرورة لأن أطيل في وصفه أو أن أعرضه بتفصيل . فكل ناحية من حياتنا تئن من ضغط هذا القيد الثقيل . وكثيراً ما نتساءل عن الافلاس الخلقي الذي منينا به ، والانحطاط الأدبي الذي هوينا إليه ، فنجد ان العامل الأكبر فيهما هو التكالب على المادة ، والسعي إلى كسب المال بأية طريقة كانت ، حتى ان واحدنا لا يتردد عن اراقة ماء وجهه ، وبذل شرفه وتضحية خلقه، في سبيل وظيفة تخلع عليه ، أو فتات من المادة يرمي به أولو الأمر إليه . ولست أنكر ان العوامل الاقتصادية التي تتلاعب بنا، والتي أضاعت ثروتنا وأفقرتنا ، ذات

أثر فعال في خلق هذه الحال ، ولكنني أصر على أن سعينا إلى المادة لا يقتصر على ارضاء الحاجة ومداواة الفقر، بل تعدى ذلك حتى أصبح رغبة في المادة من أجل المادة نفسها ، وأخل بجميع مقاييسنا ، رافعاً لذة الكسب المادي والشهوة الجسدية فوق كل القيم الأدبية والروحية. من هنا نشأ الضعف في النفوس ، والوهن في القلوب ، لأن المقيد بنير المادة يظل عبداً لها ، لا يقوى على التضحية بها في سبيل مثل أعلى . أما الذي تحررت نفسه منها، فقد اكتسب قوة هائلة لتذليل المصاعب والتغلب على الأحداث . وفي ما نرى بيننا، وما نسمع عنه في الغرب ، أمثلة كثيرة حية لضعف المقيد بالمادة وقوة المتحرر منها، ملأى بالعظة والعبرة لقوم يعقلون .

ويتصل بقيد " المادة " قيد آخر يشبهه ، هو : " الأنانية ". هو شهوة التزعم ، وحب التسلط . هو الرغبة في الذكر البعيد والشهرة الواسعة ، والسعي إلى المراكز المقدمة والأعمال الظاهرة. ومن درس تاريخ الأمم، وتابع تقدمها في ميدان الرقي القومي ، يعلم أن في هذا الميدان متسعاً للأعمال الصامتة والجهد الهادىء، بل ان هذه الأعمال هي في الغالب أبعد أثراً وأنفع للأمة من المظاهر الصاخبة . كذلك يظهر لكل مدقق أن أصحاب المراكز الوضيعة هم الذين يضعون أساس البناء القومي. غير أن الأنانية تدفع المرء إلى الاهتمام بأعلى البناء قبل أساسه ، لأن الأول ظاهر جلي والثاني كامن خفي، وتقض مضجع الواحد منا إذا شعر أن أحداً من اخوانه أو أبناء وطنه سبقه إلى مركز، أو تقدمه في مقام . وبديهي اننا لا نطلب من أنفسنا فوق ما يقدر عليه الإنسان، ولا نبغي أن نجرد أشخاصنا من هذه النزعة الفردية التي كان لها نصيب وافر في تقدم المدنية والعمران ، وإنما نريد أن نرتفع إلى المستوى الذي لا يصح أن تبقى دونه نفوس شعب ناهض للحياة ، ونطمح إلى تنقية هذه النزعة الفردية من شوائب الحسد والطمع والكبرياء، لتقوم بنصيبها في بناء الأمة وانهاض البلاد. على أن هذه التنقية عملية شاقة لا يقوى عليها إلا من قدّر صعوبتها وأدرك شروطها، وكان مستعداً للقيام بما تفرضه عليه من معاناة ومجاهدة ، ومحاسبة للنفس دقيقة .

هذه القيود المختلفة : قيود الجهل ، والتعصب ، والمادة ، والأنانية ، وسواها مما يرتبط بها أو يتفرع عنها، توثق النفس الإنسانية وتضيق عليها مجال النمو والتقدم ، فتنكمش النفس وتهن، ويقل نصيبها من العمل الصحيح والإنتاج المثمر، بالرغم مما تحدثه أحياناً من حركة وما يصدر عنها من جلبة وضوضاء . فإذا أرادت النفس أن تبلغ غايتها وتحقق كيانها ، تحتم عليها تحطم هذه القيود بالجهاد الداخلي المستمر، واكتساب الصفة الثانية من صفات النفس المجاهدة ، الا وهي : " الحرية".

***

بقيت صفة ثالثة وأخيرة يترتب علينا عرضها لترتسم أمامنا صورة صادقة لهذه النفس التي نصبو إليها. بيد أنه من الصعب جداً علينا أن نحصر معان!ا هذه الصفة في كلمة واحدة . ولعل أقرب ما يوحي إلينا فكرة عنها أن ندعوها : " الشعور بالمسؤولية " . وهي ، على صلتها بالناحية الأخيرة من صفة الحرية التي فصلناها في ما سبق- أي التحرر من الأنانية - تختلف عنها في أنها ايجابية ، بينما أن تلك سلبية ، وفي أنها لا تقتصر على التخلص من شعور الفردية فحسب ، بل تتعدى ذلك إلى الشعور بتبعة تجاه الجماعة ، والعمل بوحي هذا الشعور . وان في هذا الشعور الايجابي، والعمل الذي يتولد عنه ما يبرر تمييزنا لهذه الصفة من غيرها ، خاصة لأمة كالأمة العربية طغت عليها روح الفردية ففككتها ، وفي عصر كهذا العصر لم يبق فيه ثمة أمل لفرد أو أمة بالحياة والفلاح إلا بالتعاضد والتضامن والشعور المشترك .

مبعث هذه الصفة النفسية أن يشعر المرء شعوراً قوياً متواصلاً بالروابط التي تربطه بسواه من الناس، وبالواجب الملقى عليه تجاههم ، فيعرف مقامه في عائلته، ومهنته ، وبلدته ، وأمته، وواجباته نحو كل منها . ولو أتيح لنا أن نشاهد شخصاً قد تفتحت فيه هذه الصفة وآتت ثمارها، لوجدنا هذا الشعور مالئاً عليه حياته ، متسلطاً على تفكيره وعمله ، منبثقاً منه في كل ساعة من ساعات ليله ونهاره ، يشغله عن الحاجات الصغرى والمسائل الفردية ، ويخرج به عن دائرة نفسه الضيقة وميدان شخصه المحدود .

ويتجسم هذا الشعور في جميع ما يصدر عن صاحب هذه الصفة من فكر، أو قول ، أو عمل . فإذا فكر في أمر أخذ له عدته بإزالة كل عصبية فكرية مانعة وبإثارة النفس لطلب الحق وحده ، ثم تقدم فيه على الطريق العلمي الصحيح ، رابطاً النتائج بالمقدمات ، والعلل بالمعلولات، ومقلباً المسائل على كل وجه ، ومتهيباً كل رأي يتكون عنده أو حكم : كل ذلك اعتقاداً منه أن أفكاره تتصل اتصالاً متيناً بسواه من الناس ، وأنها قد تكون ذات أثر في حياتهم ، فخليق به اذن أن يتدبرها ويهيء لها أسبابها ، لا أن يطلق لقواه العقلية العنان لتذهب به حيث تشاء.

وكذلك تكون حاله في ما يصدر عنه من قول . فهو لا يعبّر إلا عما تكون قد أقرته نفسه الشاعرة بتبعتها من فكر صحيح وحكم سليم ، ويجهد في صوغ هذه الأفكار والأحكام بالصيغة التي يفهمها أفراد مجتمعه وتكون أبلغ تأثيراً فيهم ، لا بالاسلوب الذي يروق له ، أو الذي يقصد منه الدلالة على سعة علمه وغزارة أدبه . وما كنت لأعلق أهمية خاصة على هذا الشعور بالمسؤولية الذي يجب أن يسود تفكيرنا وتعبيرنا ، لولا هذا الفيضان من المواد المكتوبة الذي يطغى علينا من صحفنا ومنشوراتنا على أنواعها . فلو أن كتابنا شعروا هذا الشعور، وأدركوا خطر الواجب المترتب عليهم ، لأحجموا عن أكثر ما ينشئون مما ليس فيه كبير فائدة أو غناء. وتزداد خطورة هذا الأمر في نفوسنا إذا ذكرنا أننا لسنا نعيش، كغيرنا من الأمم ، في سعة عقلية فيتاح لأي منا أن يقول ما يريد كما يريد، بل في أزمة فكرية خانقة نحتاج فيها إلى كل فكر صحيح ورأي ناضج . ولذا كان من العيب ، بل من الجرم ، أن نبذر قوانا العقلية كما تملي به علينا أهواؤنا ، بدلاً من أن ندخرها ونهذبها وننميها لنصرفها في أمس ما تتطلبه حياتنا القومية من حاجات هذا الدور العصيب .

وثالث مظاهر هذا الشعور بالمسؤولية بعد الفكر، والقول ، هو : العمل . ففي حياتنا القومية حاجات لا تعد، ومجال للعمل لا يحد، ونحن بعد في الخطوات الأولى ، وأمامنا طريق طويل وشوط بعيد . على كواهلنا أعباء يجب أن ترفع ، وحولنا فقر ومرض وجهل حَرية بأن تدفع .

في البيوت والمدارس، في التجارة والصناعة والزراعة ، في ميدان الإدارة والحكم ، وفي عالم الثقافة والفكر : بل في كل ناحية من نواحي حياتنا ما يدعو إلى المعالجة والاصلاح، وإلى بذل كل جهد، من كل فرد من أفراد الأمة ، لنلحق بمن سبقنا ونبلغ بعض غايتنا. في مثل هذه الحال لا حياة للأمة ولا فلاح إلا إذا ساد هذا الشعور أفرادها وجماعاتها ، فخرجوا إلى ميادين العمل المختلفة ، يجاهدون بهمة لا تعرف الملل ، ونشاط لا يداخله فتور أو كلل . ومن يراقب حياة الأمم المتحضرة ، ير أن عدداً غير قليل من أبنائها لا يكتفي بدائرة حياته الخاصة ، بل يعمل في عائلته، ومهنته، وجمعيته، وحزبه، مدفوعاً بشعور التبعة الملقاة عليه ، جاداً في محاربة الجهل، والظلم ، والمرض، والفقر، وكل نوع من أنواع الخلل والفساد في مجتمعه. ولا نعدو الحق إذا قلنا ان رقي الأمة وتقدمها يتوقفان على مقدار قوة - هذا الشعور عند أفرادها وشيوعه بينهم ، وتمثله في ما يصدر عنهم من قول ، وفكر، وعمل . ومن هنا تظهر أهمية هذه الصفة الثالثة من صفات النفس المجاهدة : ألا وهي شعورها بالمسؤولية ، وعملها بروح هذا الشعور.

هذه هي أبرز الصفات التي تتحلى بها النفس المجاهدة : " النظام " ، و"الحرية"، و"الشعور بالمسؤولية ". وهناك غيرها صفات أخرى تظهر عندما تسلك النفس هذا السبيل القويم . غير أنها كلها ، على ما يبدو لي ، فروع ومظاهر لهذه الصفات الثلاث الرئيسية . ولست، بإشارتي إليها في كلمتي هذه ، بمبتكر شيئاً - جديداً . فقد يكون في كثير مما ذكرت ترديد لما ذكره الكتاب والمفكرون في شتى المناسبات. غير ان الذي أريد أن أؤكده وأمكنه في نفسي وأراه مؤكداً وممكناً في نفوس جميع أبناء هذه الأمة العربية هو أن هذه الصفات ، كالاستقلال، تؤخذ ولا تعطى: لا توهب من مصدر خارجي ، بل تكتسب بالجهاد الداخلي ، وان هذا الجهاد الداخلي مرتبط أشد الارتباط بجهادنا القومي في سبيل الحرية ، والاستقلال ، والوحدة ، بل هو الأساس الصحيح الذي يبنى الجهاد القومي عليه ، والعامل الأقوى في نجاحه وبلوغه غايته .

في مطلع نهضة العرب القومية ، هتف بهم صوت زعيمهم وموحدهم داعياً إياهم إلى ربط جهادهم في الحرب بالجهاد

الاكبر : جهاد النفس . وقد نفذ هذا الدعاء إلى صدور العرب، فجاهدوا نفوسهم ، ونقوها من أدران المادة والأثرة ، وصهروها بنار التضحية وانكار الذات، فتحرروا من الذل والاستعباد ، ونشروا ظلهم فوق أمم الأرض . وما كانوا ليبلغوا تلك الغاية من السيادة والحضارة ، لو لم يكونوا قد سادوا أولاً نفوسهم ، واقتطفوا ثمار جهادها المحيي ، حتى إذا خمدت هذه الشرارة النفسية ، وانقطع عهد الجهاد ، دكت عروشهم ، وتهدم ما بنوه من مجد وعظمة ورقي .

ونحن العرب اليوم ، وقد أيقظتنا قوى الحياة الجديدة، ودعانا داعي النهضة والعمل، خليقون بأن نعتبر بالحكمة التي يتضمنها قول النبي العربي ، وأن نذكر ان جهادنا القومي لا يبنى إلا على أساس الجهاد النفسي ، وأنه لا يبلغ هدفه إلا إذا تفاعلت قوانا الداخلية فخلقت فينا نفوساً منظمة ، حرة ، شاعرة بمسؤوليتها ، نفوساً تنعم بما يفيض عن هذه الصفات من قوة ، وسمو، وجمال .

عندها لا خوف علينا في جهادنا الأصغر للحرية والاستقلال ، لأننا نكون قد كسبنا جهاد النفس : الجهاد الأكبر .